علي عون الله



رواية



تراتيل أنثى

اسم الكاتب: علي عون الله

تدقيق ومراجعة: خولة حواسنية

تصميم الغلاف: إيمان عبد الحكيم

الاخراج الفني: هارون غربي

رقم الايداع: 978-9931-716-16-7

العنوان: حي 40 مسكن تساهمي الطريق الوطني رقم 16 مداوروش سوق اهراس

الهاتف: 037832786



إهداء...

إلى نبع الحنان، جنة الدنيا والآخرة..

صاحبة الفضل كله في دعمي، السيدة الأولى في

حياتي من أول دقيقة في عمري ،إلى جوهرة إنسانية

كانت بجانبي دائماً وأبداً، جسداً وروحاً وطيفاً، أمي

الغالية -رحمة الله عليها-..

..و يخيل لك أنك مُكتمل حتى تعثر

على الروح التي تكمل روحك،

وتُدرك كم كنت ناقصاً!

جلال الدين الرومي

"الـفـراق..

الـعـدو الأشـرس في الحـب."

تعطينا الدنيا أغلى اللحظات لكنها تسرق أجملها، ولا تبقى سوى الذكريات التي هي بمثابة ترياق مؤقت تأخذك بسرعة إلى هناك.

نعم.. هناك!

حيث النظرة الأولى واللقاء الأول وكذلك القبلة الأولى ملتقى السعادة القصوى، لكنها تخنقك وتقطع شريانك فور أخذك بسرعة أقوى، إلى أول دمعة قاهرة وأول ألم شديد ..إلى لحظة الفراق، بل وتأخذك حيث تتمنى الرجوع لكي تقوم بكل ما نسيت.

هي الحياة ولا يتوفر فيها قانون الرجوع، تسعدك وتبكيك، تعطيك وتحرمك، تخسرك وتربحك، تبهرك وتقهرك..

تنثر في أعماقك آلامًا لكن أشدها حينما تحب شخصًا على سطح الأرض هو توأمك وملازمك وسر عشقه مودوع فيك لا يعلمه إلَّا أنت، يأتي يوم يفارقك فيه بدون سبب، تاركا إيّاك في الزّاوية وحيدًا لا يوجد من يقاسمك الألم ويخفف عنك قسوته!



نار فراقك أشعلت صدري مثل نار حبّك التي أشعلت قلبي فالعيش بدونك أمر مهين ونسيانك في طي الهوى يستحيل!

كيف لي أن أنسى لهفة قلبي وإحساس الأمان وأنا معك؟! كيف أنسى ملامحك وحضنك الدافئ حين أخلد بين ذراعيك؟

فما معنى هذه الحياة إذا افترقنا؟

لم تترك لي يا حبيبي إلّا ذكريات تعزّيني في مراسم وداعك غارقة بالدموع والتّراتيل، أندب وجعي وخسارتي، فلا الدّمع يجدي ولا النّحيب!

الحنين سلب روحي رشفة رشفة، وحروف قلمي الكئيب عاجزة عن التعبير،هل تتذكر يوم قلت لي: "إن حياتك بدوني مستحيلة؟ " ماذا أقول؟ أنا التي تناثر رذاذ حطامك في أصقاع قلبي، ولا أقدر على انتشاله عاجزة ومكتّفة! حبيبي إلى حين موعد لقائك ستظل ذكراك مصلوبة في قلبي تناجيها التراتيل والأشواق، وسوف أتذكرك في سقوط المطر وعلى الصخرة، أتذكرك أمام الموج وفي ثنايا المدن أتذكرك في ابننا الرضيع والجو البديع.

انتقدوني كثيرًا في فرط حبك، ولاموني في عدم نسيانك! ليس لهم أي ذنب،فهم لا يعلمون من تكون!



أنت لست أي رجل أو ذكرى عابرة، أنت نبض قلبي ومرسى الروح، أنت لست أي رجل. فهناك أمر غريب يميّزك عن غيرك، تلك الرّوح الطّريفة أم جمالك اليوسفي، أم قلبك العتيق؟

حبّي وحرفي وقلبي لك يا أميري وملكي، بأعلى صوت، وأنقى قلب إلى آخر نفس تطلقه روحي"أحبك"..

لطالما خشيت على نفسي من انبثاق سحر عشقك، من فرط حبي وغرامي لك، من هول شوقي واشتياقي، لم يكن حبك محض مصادفة، ولم تكن مجرد حظّ عابر، كما لم تكن ذلك الوقع المباغت، بل كنت قدري المحتوم وخياري المختوم، سيظل قلبي يردد اسمك ويناجي طيفك ويداري حزنك!

تزاحمت في قلبي الأمنيات وتراكمت في روحي الدّعوات، أملًا في نيل خريف عشقي، وامتلاكك أنت يا "لبيبي" أيها "العاقل والمتأدب" فكلّما كتبت لك رسالة عشق، بدأت دون أن أعلم ماذا أريد أن أقول، وانتهيت منها دون أن أعلم ماذا قلت ، فأنا تحت سكرات عشقك الذّي علّمني أنّ العمر الذّي يمضي بدون عشق كأنّه لم يكن!فإن تمنيت شيئًا فأنت كل التّمني.

الحب الحقيقي يزيل الفوارق، ويهزم أعتى المواجهات ويُلين القلوب وينقي السرائر..فبه تسمو الأرواح وترقى الأنفس إلى خلق الإيثار، وتنأى عن الأنانية وحب الذات.

كيندة، لم تؤمن يومًا بالحب، كان الحبّ بالنسبة لها رمزًا رياضيًّا غير معروف، لم تعرف معنى العشق لكنّه زارها فجأة، وبدون مقدّمات كما يزور دائمًا أهله من العشّاق!

لم تحسب له جيِّدًا.. وسقطت متغاشية بين السعادة والحزن.. بين السرور والدموع.. ما تدركه هي حقًّا أنها أحبَّتْ بعمق ومن غير ندم، وباتت غارقة في محيط الأحزان.

"كيندة"

كانت حياتي منظّمة ورتيبة، أفكر جيِّدًا قبل كلّ قرار أريد اتّخاذه في حياتي، كنت طموحة منذ صغري ،فقد كبرت وترعرعت في بيت خالي سالم أخ أمّي الوحيد بعد وفاتها بمرض السرطان .

هجرها والدي مسافرًا إلى أمريكا بُغية العمل والاستقرار هناك وأمي كانت رافضة للاقتراح نهائيًّا بعد جدال كبير بينهما.

و اضطرّت إلى اللّجوء إلى المحكمة والطّلاق غيابيًّا بعد سفره عشت مع والدتي خمس سنوات وكانت تعاني كثيرًا من مرضها



الخبيث، أنا لا أتذكرها كثيرًا لكن صورتها لا تزال مرسومة بشكل ضبابي في خيالي.

بعد وفاتها قرّر خالي وزوجته بعد تفاهم أن يتولّيا رعايتي.

أنا أناديه أبي.. "خالي سالم" في الخمسين من عمره، وهو رجل حازم في قراراته وحنون جدًّا في معاملته لنا، أسمر وضخم الجثة كسا الشيب معظم شعره، ذو شاربين وعينين حادّتين.

يعمل مهندسًا معماريًّا ناجح في عمله، مكتبه يقع وسط المدينة وقد جمع الكثير من المال، لطالما اشترك مع زوجته السيدة "فيروز" التي يحبّها ويحترمها في كل شيء، فقد بذلا جهدًا كبيرًا ليوفِّرا لنا حياة سهلة وسعيدة.

كبرت في منزله الكبير الذي صممه هو منذ زمن، ذو طابقين ويتألّف من أربع غرف نوم وصالون وحمّام في الطابق العلوي ومكتبة صغيرة وصالون كبير ومطبخ وحمام آخر بالطّابق السفلي كما يمتاز بجدران من الرخام الجميل ونوافذ كبيرة زجاجية ومرآب لسيارتهما هو وزوجته، يطل على حديقة صغيرة مليئة بالعشب وشجرات الصّفصاف الطّويلة ذات الرائحة الزّكية.

.. بعد اتخاذه القرار مع زوجته السيدة فيروز التي أناديها بأمي فقد علمتني وربتني جيِّدًا ،صاحبة فضل كبير عليَّ، فهي امرأة



لطيفة في الخامسة والأربعين من عمرها، عمليّة في تصرفاتها تحب عملها كثيرًا ، مربوعة القامة وذات شعر أسود مسرّح جيِّدًا سمراء البشرة تهتم كثيرًا بمظهرها، تعمل قاضيّة بالمحكمة القضائية بمدينتي قسنطينة..

هي قدوتي، تعلّمت منها الكثير، كما أنني أحبّها وأحترمها كثيرًا.

فقد أحسنت تربيتي كما لو كنت ابنتها الحقيقية، نشأت مع ابنتها "نجوى"، التي هي تقريبًا في عمري، فتاة جملية معتدلة القوام وسمراء اللون، ذات وجه دائري جذّاب وعينين بنيتين، تملك شخصية قويّة ومتحررة بأفكارها، رومانسية وتحبّ الحياة كما تكره كثيرًا الخيارات الجلية والحتمية..

كبرنا معًا، أنا وهي، كأننا توأم كنّا نادرًا ما نتّفق في أمر أو فكر معيّن لكنّني أحترمها وأحبّها.

أما "بدر" فهو ابن خالي سالم البكر الذي يكبرني بست سنوات هو فتى مقبول الشكل، طويل القامة ونحيف أسمر وذو لحية خفيفة، يعمل محاميًّا وهو في بداية مشواره المهني منفعل أحيانًا في تصرفاته ومغرور بنفسه، أحيانًا أحسُّ أنه غامض ويصعب فهمه.

في صغري كان دائم الاقتراب منّي يعاملني بلطف ويساعدني في دروسي، ومنذ كبري وبلوغي سن الرشد بدأت معاملته تتغير نحوي



يأخذ رأيي في قرارات يريد أن يتّخذها، يعاملني بكل ود وإحترام كنت أحسّ بإعجابه بي من مديحه لي أحيانًا، ونظراته وتصرفاته معي منذ كبري، كان يهتم لأمري كثيرًا، ويبجّل دائمًا بخدمتي ومساعدتي.

..كبرت في جو مليء بالحب والاهتمام ومع عائلتي التي أحبها كثيرًا

أنهيت دراستي الثانوية وأستطعت بعون الله أن أتحصل على معدل بتقدير امتياز وأن أحقّق جزءًا من حلمي هو:

"دخول كلية الطب" بقسنطينة.

"قسنطينة" مدينتي التي نشأت وكبرت أحلامي فيها..

قسنطينة -مدينة الجسور المعلقة- هكذا يصفها سكّانها والسياح وكل من زارها ، لامتلاكها ثمانية جسور عملاقة تساعد في العبور من ضفّة إلى أخرى.

رائحة صباحها وسهوبها وجبالها.. حبّ امتلك قلبي.. شوارعها وطرقها وجوّها البديع..

هي عاصمة الشّرق الجزائري وعاصمة الثّقافة العربية ومهد الحضارة الجزائرية..

هي مدينتي التي أعتز بتاريخها العريق ودورها الفعّال في استقلال الجزائر وأفتخر بأبطالها ومثقفيها أمثال: عبد الحميد بن باديس



والشاعر أحمد بن الخلوف القسنطيني والعلامة عبد القادر الراشدي والأديب محمّد بن المسبح، وغيرهم.

بنيت فوق صخرة من الكلس القاسي، هذا ما يميزها عن بقية مدن العالم، كما تمتاز بآثار عمرانية إسلامية شُيِّدتْ فيها على مدى العصور وما يميزها أكثر مناظرها الخلابة، خاصَّةً في فصل الشتاء والربيع ،و أيضًا كرم سكانها وطيبتهم من علامات جمالها..

مهما وصفتها ومهما تكلّمت عنها فلن أوفيها حقها.. هي مسقط رأسي ومدينتي الغالية..

20/ أكتوبر/2000

و أخيرًا التحقت بالجامعة..

بدأت دراستي بكلية الطب والواقعة بمدينتي، أمّا نجوى ابنة خالي فقد فضّلت أن تدرس بكلية العلوم الاجتماعية وتحقق حلمها في أن تتحصل على الدكتوراه وتسافر إلى أوروبا للسياحة وتتفرّغ للكتابة.

كان شهري الأول في الجامعة جيّدا، وراقتني المرحلة الجديدة من حياتي كثيرًا، وبدأ إصراري يزيد فيها يومًا بعد يوم لأغدو دكتورة جرّاحة ناجحة وأحقق أكبر طموحاتي في الحياة.



في يوم الجمعة وبعد الصّلاة، اجتمعت عائلتنا كعادتها لتناول طعام الغداء، وهو حساء الفاصوليا اللذيذ وطبق السمك الذي تتقنه أمي مع خبز الفرن الذي أنعش قلوبنا برائحته الطيبة بمساعدة العمّة "حفصة" وهي قريبة أبي من بعيد التي عاشت معنا نصف حياتها تساعد أمّي في العناية بنا وتراعي أعمال المنزل، ولديها ابنين راشدين ترعاهما، تقطن في منزلها الصغير الذي لا يبعد كثيرًا من منزلنا لقاء مرتب شهري من أبي.

هي امرأة خمسينية العمر، حسنة الأخلاق، وتهتم لنا كثيرًا ونحن نحبها ونحترمها.

كانت أمسية رائعة تبادلنا فيها الضحكات والكلام، فأبي رجل ودود ويحبّ أحيانًا المزاح معنا بكلام طريف.

و سألني حينها ابنتي "كيندة" كيف أحوال الدراسة بكليتك الجديدة؟

أجبته: إنّها جيدة ولا أجد صعوبة في فهم الدّروس والمحاضرات وما استغربته حينها عندما سأل أبي "نجوى" بعد سؤالي مباشرة حيث قال لها: وأنتِ نجوى كيف أحوال كليتك الجديدة؟

لكن الغريب أن "نجوى" لم تلاحظ سؤال أبي، انتظرنا جوابها لكنها لم ترد! كانت شاردة بطريقة عجيبة ومبتسمة ببراءة وعينيها



البنيتين تكرّز بريقهما في كأس الماء الشفاف الذي كانت محدقة نحوه بعمق، ثم على حين غفلة تداركت الأمر بسرعة وردّت وهي متلعثمة ومشيحة ببصرها المتبعثر علينا:

ماذا قلت يا أبي؟

فردّ والدي وهو مبتسم بلباقة وبمزحة طريفة: إذًا كنتِ في عالم آخر! ما كل هذا الشرود وأنت تبتسمين؟

فاحمر وجه "نجوى" بشدّة وأصبح مثل بندورة الحقل في يوم مشمس، وأجابته متناولة الملعقة والسكين كأنها نست حتى الأكل وهي مبصرة تارة نحوه وتارة نحو صحنها، تريد أن تبرّر موقفها من الإحراج الذّي تعرّضت له قائلة بسذاجة: لا يا أبي فقد كنت شاردة قليلًا في بحث الفلسفة الذي استلمته في الكلية يوم الخميس لأنجزه.

فابستم والدي قليلًا وهزّ حاجيبه ورأسه مدّعيًا تصديق ما قالته.

أمّا أنا فلم أتمالك نفسي، وأصدرت ضحكة صغيرة أظنّها لم تعجب نجوى قليلًا، بينما كانت أمي تضع في صحنها قليلًا من طبق السمك سألت أبي قائلة: عزيزي، أفكّر في أن نستدعى "فريد" وزوجته الأسبوع المقبل لتناول العشاء معنا، فرد عليها أبي معجبًا



بالفكرة: نعم عزيزتي لك ذلك فقد اشتقت لفنجان قهوة بهيّ مع صديقي فريد وهزيمته في الشطرنج.

ضحكنا جميعًا لقوله الطّريف لأننا نعلم جيِّدًا أن أبي حينما يهزم صديقه فريد في لعبة الشطرنج ينفعل العم فريد كثيرًا ولا يتقبل الهزيمة، ويتكلم هنا وهناك ووالدي يراقبه بابتسامة خبيثة تشي بالتفوّق، ويقول لنا كذلك أنّ والدكم محظوظ فقط فنبتسم جميعًا حينها ونبدي أمامه بصحّة قوله.

لكن والدي يحبه كثيرًا ويعتبره من أقرب أصدقائه، ففريد وزوجته هما من أصدقاء عائلتنا المقربين وهو صاحب شركة مقاولات وعمل مع والدي في الهندسة المعمارية.

ليلتها كنت جالسة على مكتبي منهمكة في تحضير دروسي وكانت الساعة تشير الى الحادية عشر، ثم توقفت قليلًا من شدة الإعياء وفركت أصابعي قليلًا حتى خطرت لي لحظة ضحكتي على "نجوى" أثناء قول أبي المحرج لها، فقلت في نفسي يجب أن أذهب لأتكلم معها وأطلب السمّاح منها لأني لم أكن أقصد وبالمرّة أعرف ماذا تخفي عنّي ينتابني فضول كبير لمعرفة سرّ شرودها العميق مع تلك النظرات الملونة التي أبهرتني ببريقها!

ذهبت وطرقت باب غرفتها، سألت من بالباب؟ فعلمت أنها مازالت مستيقظة دخلت إليها، فوجدتها مستلقية وكتاب فوق صدرها وعند رؤيتي أخفت الكتاب تحت وسادتها، كأنّها لا تريد أن أعلم ماذا تقرأ.

و قالت بابتسامة: هذه أنت!

- نعم أنا ومن يكون!

ثم جلست بجانبها ..

-هل أزعجتك ضحكتي إثر حديث والدي معك مساء اليوم؟ فأنا لم أكن أقصد إزعاجك.

أجابت كأنها نست الحديث تقريبًا

- آآآ لا يا عزيزتي "كيندة" لا تهتمي..

بعدها أحسست بأنّي أريد من صميم قلبي معرفة سبب تلك السّهوة العميقة التّي كانت فيها ومع ابتسامة لبقة قلت لها: "نجوى" أريد أن أعرف السبب الحقيقي وراء شرودك الغريب على الطّاولة اليوم، كما أنك تغيرت زيادة هذه الأيّام؟

وقبل أن تباشر بالحديث قطعتها : وأريد جوابًا حقيقيًّا غير جوابك لأبي الذي هو أصلًا مفضوح ..



فأطلقت حينها ضحكة برتقالية وتغيّرت تعابير وجهها بسرعة وأجابتني بثقة كبيرة: ليس الآن يا "كيندة" عندما يحين الوقت سأخبرك كل شيء..

و من ردّها بدى لي حينها أنّه موضوع كبير حقًّا ،سألتها وقلبي متشوّق لإجابة تريح فضولي وتهمده وبقليل من التودد: أنا أختك وأقرب الناس إليك ألا تقولين لي؟

لكنّ "نجوى" دون مراعاة شغفي لمعرفة الموضوع أصرّت على جوابها..

والأغرب أنّي أحسست حتى أثناء حديثي هذا معها، أنها ليست نفس الفتاة ..لم تكن توأمتي وأختي التي أعرفها وأفهما جيِّدًا، بدت لي فتاة ملونة فتاة من كوكب الزّهرة..

وبعد أن يئست أمسيتها على خير بسأم واتّجهت نحو غرفتي إلى سريري بالتّحديد ،واستلقيت محاولة النوم مع تلك الأفكار التي استوطنت عقلي أهمّها "يا ترى ما الموضوع الذي تخفيه عنّي نجوى؟!"

أيّامي كما هي!

منقضية بصورة عاديّة، البيت والكليّة وأحيانًا التجوّل مع أختي "نجوى" وشراء بعض اللّوازم والحاجيات.



عشية يوم الخميس كنت مع "نجوى" وسط المدينة بالطّبع بعد مشاورة أمي نتجول في محلات نسائية بغرض اقتناء بعض الألبسة الجديدة، أحبّ الملابس العصرية والتأنّق بأبهى الحلل، أحيانًا أشتري طاقمًا جديدًا كل شهر، فأبي "خالي سالم" لا يبخل علينا بشيء ودائمًا يوفّر لنا المال اللازم..

تفاجأت عندما طلبت مني "نجوى" أن نذهب لمحلات بيع الهدايا والعطور، واعتقدت حينها أنها تريد شراء هدية ما لأبي أو لأمي، لكنّ التّاريخ لا يوحي بعيد مهمّ مثلًا عيد الأم أو عيد ميلاد واحد منهما كان تاريخًا عاديًّا وعند دخولنا لذلك المحل الذي اختارته، محل فاخر ويبدو أنه يبيع هدايا جميلة ومستوردة وغاليّة الثّمن، وجدنا دببة حمراء مكتوب عليها بالانجليزية.. "أحبّك" وعبارات أخرى رومانسية كثيرة لفتت انتباهي بعض الشيء، كما أنّها هدايا من كل نوع منّظمة ومستّفة في أرفف بشكل جميل وأخّاذ.

بينما راحت هي تتأمّل الهدايا والمعروضات الأخرى، كنت واقفة في زاوية المحل أرى تلك الكلمات الرومانسية على الهدايا واللون الأحمر الجذاب في معظمها، أعجبني منظرها وبقيت أراقب أشخاصًا آخرين تبدو عليهم سعادة كبيرة، منهم من لا يزال يختار هديته ومنهم من هو واقف أمام صاحب المحل وهو يلفها بابتسامة عريضة. لابدّ أنّ الأكثر اسعادا من الحصول على هدية هو تقديمها ..فمن ذا



الذي يسعد نجوى بعناء اختيار هدية له !تملّكني الفضول نحو تلك البهجة وسببها ، وانساب إحساس رائع خافت يهمس في قلبي لم أفهمه جيِّدًا لكن عقلي فسّره على أنه مجرد إحساس عادي كغيره ثم نادتني نجوى وفي عينيها نور جعلهما تتلألآن مع ابتسامة بريئة كأنّها طفلة صغيرة حان موعد ألعابها. فاقتربت منها أبادلها الابتسام كما بدت عليها راحة كبيرة ثمّ أمسكت كتفي بخفة وقالت بنبرة حنونة مشيرة بإصبعها السّبابة. ما رأيك في هذه الساعة البيضاء التي عليها دوائر حمراء؟

استغربت مبدئيًا لمن سوف تشتريها! ثم أبصرت نحو السّاعة التي اختارتها فوجدتها رجالية وغالية قليلًا؛ فثمنها كان مكتوبًا تحتها!

أعجبتني فقلت

-إنّها جميلة..

أجابت مبتسمة كأنها تريد التأكد

- حقًّا.. ؟

قلت لها: نعم بالطبع.. لكن لمن هي؟

قالت بثقة

-سوف أخبرك فور عودتنا إلى البيت.



اعتراني فضول أكبر لمعرفة صاحب الهدية

-أجل عند عودتنا تخبرينني بكلّ شيء..

بعد ذلك طلبت "نجوى" من صاحب المحل أن يلفها لها ويزينها جيِّدًا فهي هدية لشخص عزيز، فردّ عليها صاحب المحل بابتسامة رقيقة أهي لصديق أو فرد من العائلة؟ ثم توسّعت قليلًا ابتسامته ونظر إلينا بدفء قائلًا أم هي هدية لحبيب!

خجلت "نجوى" ونظرت إلى أسفل قدميها ثم نظرت إليَّ بابتسامة وهّاجة، ثم أعادت ببصرها نحو البائع ووجهُهَا محمرٌّ ، ثم حدّقت معي مرة أخرى كأنها لا تريد أن تجيب وقالت: "نعم"

فضحك صاحب المحل بلطف وبدأ يلفّها بإتقان ويزيّنها بأشرطة حمراء، بدا حينها سعيدًا جدًّا لأنه يبيع هدايا الحب ويزرع الفرحة في قلوب المشترين.

أما أنا لم يعني لي الأمر كثيرًا إلَّا أن فضولي زاد أكثر لأنّي أخيرا تأكدت من وجود حبيب في حياة "نجوى" وأردت أن أعرف من هو وكيف تعرّفت عليه ومتى؟

أسئلة كثيرة أريد إجابات سريعة لها لكنّ الوقت والمكان لا يسمحان فقلت في نفسي عند عودتنا إلى البيت سأرى من هذا الحبيب..



و كيف دخل حياة أختي بهذه السّرعة؟و أنا لا أعلم!

بعدها عدنا إلى البيت..

صارت السّاعة التّاسعة ليلًا.....

و أنا في غرفتي أراجع بعض الدروس على مكتبي الذي تقابله نافذة تطل على الحديقة الخارجية للمنزل، كان الهدوء مخيّمًا في غرفتي والنجوم برّاقة من زجاج نافذتي، حتى هفّت مسمعي بعض طرقات باب تتلوها كلمات أختي نجوى تقول لي:

-هل يمكن أن أدخل "كيندة"؟

- بالطّبع ...

دخلت أختي مبتهجة مرتديّة تنورة سوداء اللون وشعرها مسرح ومتدلّ بأكمله على كتفها الأيمن زادها في الجمال روعتين، وكان وجهها مليئا بالفرح والسرور!

قالت:

أمازلت مع الدراسة؟

فأجبت شاعرة بنظاراتها تعاتبني على غفلتي الزائدة عن نفسي وإنهاكها .



"نعم". فأنا أحضّر بحثا حول تشنّج العضلات وكيفية معالجتها ومطلوب تجهيزه الأسبوع المقبل.

ثم جلست على سريري القريب من مكتبي تجاوره خزانة بنية مالت قليلًا بجسمها متّكئة على مرفقها..

أما أنا وضعت قلمي وطويت كتابي وقابلتها مستديرة بكرسيي الخشبي، ثم رمقتني بنظرات العتاب قائلة لي:

أنت تجهدين نفسك كثيرًا يا عزيزتي! إمنحي نفسك قليلًا من الراحة، وقلبك قليلًا من الحب يا كيندة فأنت دائمًا تدرسين فوق طاقتك ألا تراعين راحتك النفسية؟

ساد الصمت بيننا هنيهة وكأنها بكلماتها قد أعادتني للوجود لوهلة فتذكرت حينها أنني كائن حي له احتياجات لكنني من غيرت هذا الأمر و جعلت نفسي آلة مبرمجة للدراسة ...ثمّ أردفت ...حتّى وجهك أضحى شاحبا!

أحسست بذنب و تقصير تجاه نفسي وقلبي وأحسست كأن أشياء كثيرة تفوتني، فأجبتها وأنا ألبس قناع القوة والثّقة أمامها:

أنت تعلمين يا أختي، أنّي أحب دائمًا التفوق في دراستي ولا أستطيع تقبل فكرة تفوّق طلاب آخرين عليَّ مهما كانت الظروف.



أريد الريادة في كليتي وتحقيق حلمي وهذا يحتاج مني جهدًا وتعبًا كبيرين.

فردت بثقة جوابًا كان غريبًا حقًّا لحظتها بالنسبة لي، لم أكن أعلم أنه سوف يأتي اليوم الذي أؤمن بما قالته لي إيمانًا كاملًا عن تأثير الحب الهائل في القلوب وإشعاعه الخارق في زرع معاني وإدراكات جليّة يصعب شرحها بالكلمات..

قائلة:

ليس هناك أجمل من الحب في حياتنا..دراستنا وأهدافنا هي جزء من حياتنا لا أكثر، لكن الحبّ هو الحياة برمّتها والمحظوظ فقط من يمنحه الله طريق الحب وروعته..

فما أروع إحساسك بأنه يوجد شخص في حياتك يحبك ويخاف عليك أكثر من نفسه والأروع هي أحاسيسك المغدقة بتجليّات الجمال وإطلاق العنان لبصير قلبك وتوهجه بعد سبات طويل.

عند النّظر في عينيه وتوهانك الرائد في عشقكما وعشق كل خلية فيه، عند لمس يديه وأثناء كلامه المغازل عند كل مقابلة جديدة، وعند كل نظرة سحرية فور قربه منك

كل لمسة حنان.. وكل كلمة تضحية..



ثم تنهدت براحة ورضًا وقالت

آه يا" كيندة "ماذا أقول؟

تفاجأت واستغربت لكلام" نجوى" وقبضت أكثر قلبي الخافت لكلامها عن الحب..

كان وجه " نجوى" حينها يشع فرحة وسعادة وهي تكلمني عن الحب!

ثم قلت لها محاولة تجاهل كلامها: أنا ليس عندي وقت للحب وهذا الكلام.

"فهناك أمور أهم في حياتي" ..

فردت عليَّ قائلة بعد ما حزمت وجهها :

كلّ إنسان يحتاج للحب مهما كانت صفته أو معتقداته،فطريق الحبّ طويل وجميل وأحيانًا قصير وحزين.

"لكنه حلو بكلّ مافيه"

حينها تذكرت الهديّة التي اشترتها وأسرعت متلهفة في إلقاء سؤالي عليها وكنت أحدق بعينيها أترصّد تغيّرات وهجهما و كأنني أريد أن أخترق دماغها لأعرف الجواب قبل أن تنطق به.



-قولي لي نجوى من هذا الشخص صاحب هدية اليوم؟

فابتسمت فرحة وقالت:

- هو طالب يدرس في كليتي لكنّه في السنة الثالثة قريب زميلة تدرس معي وتعرفت عليه من خلالها، كان أوّل لقاء لي معه أثناء رؤيته لزميلتي وجاء ليسلّم عليها وأنا كنت رفقتها وقتها، كان يحدّثها ويرمقني بنظرات أسرت قلبي من أول لحظة، وأبهرني بشخصيته القوية وكلامه العذب.

طويل القامة وذو مظهر جميل، ومن هناك بدأت قصّتنا بلقاءات ومحادثات وأحيانًا تجمعنا أحاديث طويلة، في الفلسفة وأمور ثقافية كثيرة.

وبتّ أحتج بمساعادات في بعض الدروس منه لكي ألتقيه وأتناغم معه في حوارات عذبة يمطرها علي، وأتقرب منه أكثر، كان يمتلك أسلوبًا وحسًّا جميلين

ثم خطر ببالي سؤالي هذا لها:

-كيف بدأت قصة حبّكما؟



-بدأ كل شيئ عندما اعترف لي بحبه لأول مرة في يوم لن أنساه أبدًا، يوم أحسست فيه كأنني أولد من جديد و.عرفت أن حياتي كانت بدون معنى من دونه.

أحببته من كل قلبي وصرنا عشاقًا جدد في طريق الهوى لا تربطنا قيود ولا معتقدات، بحبّه صرت أرى العالم بعينين جديدتين.

كان كلام أختي مثل القصص والحكايات وقلبي يدقّ بقوة أحسست بفرحٍ وشوق! لم أكن أعرف ساعتها ماذا أقول؟

كأنّ من تكلمني فتاة من كوكب آخر..من كوكب الزّهرة !

كأنّها على دين غير ديني..

فقلت بنبرة ضعيفة وهزيلة: وماذا تفعلين إن علم أبي سالم بأمرك؟

فأنت تعرفين طبعه القاسي تّجاه علاقات جديدة وخاصّة مع رجل غريب.

فردت بثقة وبرودة كبيرتين:

- لايهمنّي ! ..

تفاجأت بردها القوي كأن ماقلت لا يعني لها شيئًا!



ثم أردفت لقد وجدت الحب والشّخص الذي يعشقه قلبي وليس من السهل عليَّ أن أوضح الأمر لأبي الآن، سأبقي علاقتي بعيدة عن مسمع أبي وأمّي حتى يحين الوقت المناسب لإخبارهما..

ثم قلت لها:ما اسمه؟

قالت لي مبتسمة: سعيد.

فقلت لها بمزحة طريفة:

حتمًا سيكون اسمه" سعيد"

بنثره كل هذه السعادة المنطلقة من عينيك وتعابير وجهك، فضحكت منزلة رأسها إلى الأسفل ثم رفعته وحدقت في عيني واعتدلت بقوامها وهي تتهيأ للمغادرة، قالت:

لقد تعبت يجب أن أذهب للنوم فغدًا ينتظرني يوم جديد كي أجهّز نفسي تصبحين على خير!

- وأنت من أهل الخير!

بعد ذهاب" نجوى "استدرت بكرسي إلى مكتبي وتناولت قلمي وفتحت كتابي.

"..لكن!"



عقلي لا يزال شاردًا يردّد كل ما قالته" نجوى "لي كأنه يفك شيفرات جديدة عليه لم يفهمها، وهي داخله رويدًا رويدًا، خارت قوايا بالكامل ولم أستطع حتى النّظر في كتابي، وضعت قلمي ونظرت إلى السّماء السوداء الموحشة خارج نافذتي واختفاء النّجوم بعد أن انطفأ بريقها فجأة .

و بدأت"أفكر.. أفكر.. أفكر"

بعدها استلقيت على سريري وتنهدت بشدة وقلت في نفسي:

ما هذا الحب؟

وكيف يأتي؟!

لماذا لم أحب قط في حياتي؟

كيف هو شكل هذه الأحاسيس التي كانت تسردها لي؟!

ما هذا البريق الذي يخرج من عينيها؟

وجدت نفسي في قلب دوامة أسئلة كثيرة ولم أستطع فهم شيء.....

إلّا أني أدركت إحساسًا قاهرًا في قلبي وقتها، أني حقًّا في حاجة لهذا الحبّ الذي يعيشه كلّ أقراني ..تملكتني بعض الغيرة.. و



أحسست أنني أريد تلك الأحاسيس لنفسي!و بدقات بطيئة ومؤلمة تسري في عمق قلبي..أوهمتُني..

"أن حياتي بدون حب بلا معنى.."

نجوم أردت لمسها لكنّني لم أستطع؟

حقول أردت دخولها لكن لم أقدر؟ وطريق أحببت قطعها من شدة ضعفي لكنّي لم أعبرها؟..

كنت أظن أني شامخة بطموحي وقوية بأهدافي!

لكن قلبي يعاتبني ويعذبني.. أصبحت مشتتة أرى ماضيًا في مرآة مشقّقة! وتذكرة قلبي موجودة لكن لا أحد يشتريها!

أين كنت؟

وأين قلبي؟

آخر مرة كلمتني أختي عن حبيبها وإذا بأحاسيس مدمرة تفاجئني، مرفقة بعويل من قلبي يناديني!.. وصرخات استنجاد تناديني!

إنها حماقات تشبثت في عقلي وغطت النور على قلبي..

تساءلت مرارًا وتكرارًا وقلت:

لماذا كنت أتحاشى



هل لأنني خائفة من أن يضعفني؟ لكني ضعيفة الآن بدون حب!

أم لأني خائفة من الفراق؟ لكننّي وحيدة الآن وألمي أحدّ من الفراق، أم لأننّي لم أجد حبيبي بعد!.

لكن أين هو حبيبي؟

.. أصبحت أيّامي خالية تمامًا من صهو السّعادة، أكملت عامي الأول في الجامعة وتجاوزته بامتياز كعادتي، وأقبلت علينا العطلة الصيفية، وكان يجب أن نضع برنامجًا جيِّدًا لهذه العطلة .

في ليلة الاثنين من شهر جوان وبعد وجبة العشاء، كنّا في الصالون في الطابق السفلي نحتسي الشاي ونتابع حصة طريفة لباقة من ممثلي الكوميديا الجزائريين في القناة الجزائرية الأولى، أنا ووالدي وأمي وأختي أما" بدر" فكان ليلتها يسهر خارج المنزل مع أصدقائه.

ثم سأل أبي أمي:

ما رأيك عزيزتي أن نذهب في رحلة أسبوع أو أسبوعين إلى تونس الشّهر المقبل؟

فردّت والدتي قاطبة جبينها مبتسمة كأنّها تنتظر هذه الرّحلة منذ فترة لتستعيد نشاطها وترتاح قليلًا من المحاكم والقضايا.

نعم عزيزي، إنها فكرة جيدة وسأباشر في طلب إجازتي قبل ذهابنا.



نظر والدي إليَّ أنا وأختي بشيء من السرور وقال لنا: مارأيكنّ يا بنات في ذهابنا إلى تونس لنقضي بعض الأيام هناك للراحة والاستجمام قليلًا؟

أم تفضلون وجهة أخرى؟

نظرت إليَّ" نجوى" وقد احمرت وجنتاها ثم قلنا له:

نعم يا أبي موافقات وقدأعجبتنا الفكرة.

فلنا ذكريات كثيرة في هذا البلد الذي تعودنا زيارته منذ صغرنا.

تتمتع تونس بجوّ رائع في الصيف و جلّ مقاطعاتها جميلة وذات مناظر خلاّبة وآثار معرفية متنوعة، وآخر رحلة لنا فيها كانت قبل ثلاث سنوات.

..أتت زيارتنا إلى تونس والتي قضينا وقتًا ممتعًا فيها في درة المدن السياحية" سوسة"، فقد حباها الخالق كل صنوف السحر والجمال حيث أننا استمتعنا بشواطئها الرائعة ومعالمها الجميلة، والغريب في هذه المدينة الجميلة أنّ كل من يزورها لابدّ أن يعود إليها مرة أخرى!

مثلي أنا تمامًا!

وما أبهرني حقًّا فيها..



ذلك المتحف الأثري فيها الذي يحتوي على مجموعة لا يستهان بها من اللوحات الفسيفسائية النفيسة..

كما زرنا من قبل الحوانيت والمحلاّت وأسواقها الشعبية، يالها من مدينة رائعة سحرت قلبي بجمالها مرارا !

الأجمل من كلّ ذلك أنّها مدينة لا تعرف النّوم أبدًا.. حيث ينظّم فيها الكثير من الحفلات والمهرجانات الثقافية العريقة..

ثمّ استأجرنا "شاليه" رائع بعد أسبوعنا الأول هناك، يقبع أمام الشاطئ يتكون من غرفتين وصالون ومطبخ صغير وفيه حديقة صغيرة تمتلئ بالفل وورود نرجس ذات رائحة زكية والطلة آسرة.

أمضي كل صباح في الاعتناء بها وتأمل ألوانها، كما لا أنسى راحتي النفسية في كل صباح مبكر والاستمتاع بشروق الشمس.

أمضينا اليومين الأولين من الأسبوع الثاني تحت الشواطئ المثيرة ومياهها الممتعة، مع مختلف الجنسيات روس وإنجليز وإسبان وعرب آخرين، كانت مقاطعة "سوسة" تستقطب أجناسًا كثيرة من كل بلدان العالم، أما في كل ليلة فهناك حفلة موسيقية تنتظرنا في جو راقص مبدع مع وجبات عشاء معتبرة.

في الليلة الثالثة من الأسبوع الثاني وبعد تلك الحفلة العربية الأصيلة، التي استهوتنا كثيرًا وسهرنا فيها حتى حد الساعة الثانية ليلًا،



عدنا إلى الشاليه الذي استأجرناه للنوم و.الراحة والاستعداد ليوم جديد مثل العادة.

إلَّا أنني تلك الليلة لم يغمض لي جفن، وأحسست بقليل من القلق، فقررت مغادرة غرفتي إلى الخارج لشم هواء عليل، وقتها كان جميع أفراد عائلتي يغطّون في نوم عميق، أغلقت باب الشالي بهدوء ثم جاءت ببالي فكرة ذهابي إلى الشاطئ، فصوت مياهه الضاربة المسموعة من بعيد تحت جو الليل الهادئ بعثت في صميمي فكرة الجلوس أمامه ومراقبة المنظر والتفكير بهدوء بعيدًا عن الصخب والضجة النهارية.

أتيت بكرسيي الصغير الذي كان بالحديقة وتوجهت نحو الشاطئ وجلست أمامه مباشرة كان البحر هائجًا قليلًا تلك الليلة كأنه يخبرني برسائل كثيرة، لم يكن أحد هناك وقتها بالمرّة سواي أنا، جلست أراقبه بتمعن والنسيم البارد يداعب جسمي، شعرت بسرور وراحة نفسية عالية.

لحظات حتى سمعت خطوات خفيفة من ورآئي ما إن حاولت الالتفات حتى شعرت بيد خشنة بعض الشيء مثبتة على كتفي الأيمن!..

انقبض قلبي وتسارعت دقاته وخفت!..



ألتفت بسرعة خاطفة كان منظرًا مروعًّا مما جعل ركبتي ترتعشان ونفسي يتقطع!

"لقد كان منظرًا غريبًا ومأساويًّا!"

عجوز مسنة قصيرة القامة، نصف وجهها الأيسر مشوه بالكامل ترتدي عباءة سوداء وتتكئ على عصا خشبية، تبتسم بلطف أمامي مباشرة.

ما حيّرني أنني كنت متأكدة أن الشاطئ كان خاليا تماما، ولم يكن هناك أيّ شخص! من أين أتت؟

و كيف ظهرت لي بهذه السرعة ومن تكون ؟

ابتسمت ثم بادرت بالحديث بلطف:

مساء الخير! أرى أنك جالسة وحدك هناأتشكين للبحر همومك ؟

مع أنّي كنت خائفة، مذعورة منها حدّ الموت، إلّا أني تشجعت وأصدرت آهة تشجيع وقلت لها بكلمات متسرّعة ومتقطعة:

ليس بالضبط يا سيدتي، حاولت النوم لكن لم أستطع، لذا أتيت أمام البحر أراقب المنظر فقط.



جلست على يميني ثم ابتسمت مرة أخرى محدقة فيّ بوجهها المريع بتلك العينين المخيفتين واحدة منهما ممسوحة بالكامل، قالت بمزاج غائب:

يبدو أنك خائفة مني كثيرًا؟ لا تخافي من وجهي فهو ناتج عن قصة طويلة في الماضي ولا يبدو أنك ستسرين لو سردتها لك فانظري في عمق وجوهر الأشخاص فلا تغرك أشكالهم.

أنت فتاة جميلة جدًّا وقلبك نقي، من نظرة واحدة فقط أعرف الشخص الّذي أمامي وأحب أن أعرفه كذلك عن مستقبله، كما أن فيكِ شيئًا مميزًا وأحيانًا يكون خطيرًا، ويبدو لي أنك ستكونين من النساء اللواتي قد يحتفين بتاريخٍ عريق.

استرجعت قليلًا من رباطة جأشي وثقتي، أبهرتني كلماتها وثقتها الزّائدة عن قدراتها في فهم النّاس ومعرفة معادنهم، وانتابني فضول كبير في معرفة مستقبلي، بدت لي أنها عرّافة!

سألتها مباشرة:

-هل يمكن أن تعرفي مجريات مستقبلي حقًّا؟؟

نظرت إليَّ بعمق، ابتسمت والتقطت يدي اليمنى بيدها اليسرى، وبدأت تتحسسها ثمّ أجابت بشكل موحٍ:



كما قلت لكِ سوف يكون لكِ تاريخ! وسوف تتأرجحين على أعمدة النّجاح، وتحدث لك أشياء و تحدث بسببك أخرى! سوف يحبّك رجال كثر ولكنك ستحبيّن رجلًا واحدًا، هو نفسك وروحك، سرّه مودوع فيكِ إلى آخر نفس دنيوي.

لكن....

توقّفت العجوز وهي تشدّ على يدي بقليل من القوة، سكتت برهة ثم حدّقت في عيني بغرابة..

نظرت إليها وإذا بدموع خفيفة تسري منها، حزنت بشدة مما أخافني أنا كذلك، ثم أفلتت يدي بهدوء تام، نظرت للبحر قليلًا ونهضت ما حيّرني وأرعبني!

والتفتت إلى يمناها وباشرت بالمغادرة.. لحظتها وقفت أنا كذلك من مكاني وأمسكتها من يدها وقلت لها بنبرة هزيلة:

إلى أين يا سيدتي؟ ألن تكملي لي ماذا سيحدث لي؟

نظرت إليَّ بحزن شديد ومسحت دمعتها الأخيرة وقالت:

ما اسمك؟

قلت:

"كيندة"



قالت: "كيندة" الدنيا متاع وأفراح وأحزان، فلا تكوني صلبة ، فتنكسري ولا تكوني لينة فتُعصري، امضي مُضيِّ الطاهرات واصبري على أهوال البلاء، وإن أماتوا زهرة في جوفك فبستانك حيٌّ، واصبري على آلام الحب لعل متلِفها يومًا يداويها، فمصائبك يا درّة الجميلات قد تهد جبالا شامخات.

ترسّخ كلامها في عقلي ونحرني في أعماقي، فكل معانيه ليست ببشرى خير، حزنت بشدة، وأنا أطلق يدها لمّا غادرت بعدما رمقتني بنظرة تحسّر عجيبة، ما إن التفتُّ للبحر وتنهدتُ بشدة وأعدت نظري إلى طريق تلك العجوز، لم أجدها!

لم تكن موجودة، التفتُّ هنا وهناك، ليس هناك أحد غيري!

"خفت وتعجبت وتحيرت مما حدث ومما قد يحدث"

هل هذه العجوز حقيقة؟ أم أنّها تهيؤ فقط؟

رجعت إلى مجلسي وأنا مازلت أبصر ناحية طريقها لعلها تظهر مرة أخرى، لكن لا جدوى .

بدأت أفكّر فيما قالته لي ثم قلت لنفسي: أنا فتاة مثقّفة كيف أسمع كلام عرّافات كهذا؟ ماهذه الرؤية المستقبلية؟ فالمستقبل علم لله تعالى وحده، كدت أصدق كلامها حقًّا، بعد فترة زمنية حملت



نفسي وعدت إلى غرفتي ونمت بصعوبة كبيرة تحت خيال تلك العجوز وكلماتها التي لم تبارح عقلي أبدًا..

بعد اكمال أسبوعنا الثاني جاء وقت الرحيل، فقد غدت رحلة جميلة استرجعنا فيها نشاطنا وحيويتنا، وحان وقت رجوعنا إلى قسنطينة.

****

03/أوت/2001

بعد عدّة أيّام من عودتنا وفي صباح مشرق يوم الأحد استغربت مناداة" بدر "المفاجأة لي من طرف أختي" نجوى" وقد أخبرها أنه يحتاجني في أمر مهم.

و عند ذهابي إليه طلب مني أن نجلس في الصالون التّابع للطابق السفلي، كما لاحظت أنّه كان متأنقًا أكثر من عادته!

كان شعره مسرّحًا بشكل جميل، يرتدي قميصًا بنّيا وسروالًا أبيض اللون صيفيًّا خفيفًا، ورائحة عطره جميلة.

تجهّز مسبقًا لقول موضوع مهم، جلست على الكنبة أمامه وقلت بنبرة عادية:

إن شاء الله خير يا "بدر" لقد قالت لي "نجوى" أنك تريد محادثتي في أمر مهم يخصّني.

فردّ بصوت خافت ومتردد كأنه خائف قليلًا:

نعم يا كيندة..

إسمعي لقد فكّرت مليًّا في هذا الأمر قبل البوح به لك، ثم حدق في عينيَّ وقال:



أنت تعرفين كم أحترمك كثيرًا يا كيندة ومعجب بك، وبشخصيتك وروحك الجميلة، ثم تردد قليلًا وقال لي: لقد أحببتك منذ سنوات ولم تكن لدي الشجاعة الكافية لقول هذا لك.

لقد قلت لنفسي أنّه حان الوقت المناسب ويجب إخبارك بما في قلبي.. وأعلم جيِّدًا أنّك صاحبة طموح ومستقبل كبير وأنا فخور بهذا بالطبع.

لقد أحببتك يا" كيندة "منذ زمن وحلمت كثيرًا أن تكوني شريكة حياتي وزوجتي في المستقبل..

وإذا كنت تبادلينني نفس الشعور وتريدين المضيّ معي فأنا فكرت في اقتراح الموضوع لأبي وأمي وخطبتك أولًا..

لكن حتى أسمع رأيك وقرارك..

هزّتني كلماته بعض الشيء وتسلّل قلبي بعض السرور، فـ"بدر" رجل محترم وأعرفه جيِّدًا وأرتاح له كثيرًا، لديه مستقبل، وكل فتاة تحلم برجل مثله لاسيّما بعد اعترافه بحبه لي ..

و لقد أحسست بذلك فقد كنت أراه في طريقة تصرّفاته معي ولطالما سبق لطفه كلامه معي، كما رمقني في كل لقاء أو مواجهة بنظرات الإعجاب، ربما ظننت حينها أن هذا هو الحب!



و أنّ كل فتاة يجب أن تختار الرجل المناسب والذي يحترمها ويهتم لأمرها.

و يكون زوجًا مخلصًا لها فقط..

و يقوم بمسؤولياته الزوجية على أكمل وجه..

كنت في نفسي موافقة وأحببت فكرة الارتباط معه، فهو أكثر رجل أعرفه جيِّدًا.. وأرتاح إليه..

لم أقل حينها أنّي موافقة بل فكرت في أن أتركه يحاول قليلًا، أحسست وقتها أنني أحتاج أكثر من هذا للموافقة ولأشعر بنفسي فتاة شامخة تريد أكثر من لقاء واطراء واحد للموافقة ..شيء من الغرور الأنثوي، فنظرت نحوه كأنّ الأمر لا يهمني كثيرا وبابتسامة لبقة قلت :

-حقًّا!

ثمّ أردفت : لقد فاجأتني بهذا الأمر!..وأنا لا أفكر حاليًا في الارتباط مع أنني أحترمك كثيرًا وأقدّر محبّتك لي فكل فتاة تتمنى الارتباط برجل مثالي مثلك.



تفاجأ قليلًا ثم تجهّم وجهه وتغيّرت تعابير عينيه كأنّه لم يكن يتوقّع ردّي هذا.أيقنت حينها أنا كلامي كان قاسيًا بعض الشيء معه.ثم رمقني بنظرات متعجرفة وقال:

-فكري قليلًا ثم ردي عليَّ ولا تتسرعي في اتخاذ قرارك

-نعم سأفكر وأرد عليك في أقرب فرصة، فهذه قرارات صعبة وتحتاج وقتًا للتفكير، والرؤية المستقبلية للزّواج من جميع الجهات.

مرَّت الأيام..

وانتظرت كثيرًا محاولات من بدر أن يتودّد لي وأن يعيد فتح الموضوع، لكنّه اختار أن يصمت وأن ينتظر ردّي، دون أن يعيد الكرّة ويكلّمني مرة أخرى.

كان دائم الشغل في قضايا المحاماة ،يقضي بعض الوقت فقط معنا، أنا و"نجوى" و"أبي" وذلك أثناء تناول الفطور والغداء أو اجتماعنا أحيانًا في الليل.

و كان كثير الجلوس مع أمي" فيروز "يناقشان القانون والقضايا ويتبادلان الآراء والانطباعات، كنت دائمًا أراقبهما من بعيد.

أحسست أني غير مهمّة في حياة "بدر" وأنّه قد يستغني عنّي في أي لحظة وهذا ما زادني قهرًا.



لكنّ عقلي أصرّ أنه الزوج المثالي مردّدا "لا تفوّتي الفرصة عليك واقبلي عرضه."

صراع حاد بين عقلي وقلبي ولم أستطع أن أجد حلًّا يريحني ويهدّئ من بركان الأسئلة المتهافت عليَّ، والمناقضات الداخلية التي شملت جل تفكيري.

ليلتها كنت في غرفتي أرتب ملابسي بعدما غسلتها وكويتها، بعدها استدعتني أمي بأمر من أبي قالت أنه يريدني في أمر مهم!

فنزلت إلى الطابق السفلي وحين وصولي أبصرته واقفًا على النافذة التي بجانب مكتبته الكبيرة، وهو يرتدي قميص النوم ورائحة سجارته السميكة تملؤ المكان، عند وصولي إليه قلت له بوجه بشوش: نعم يا أبي ها أنا هنا..

فالتفت إليَّ وقال بابتسامة: تفضّلي بالجلوس، فأنا أريدك في أمر شخصي يهم مستقبلك.

راودني حينها شك كبير أن" بدر "قد فتح الموضوع لأبي وأمي لكي يساعداه.

قلت له بشيء من الحذاقة: تفضل يا أبي كلي آذان صاغية..



فقال لي مسرورًا: لقد كبرتِ الآن وأصبحتِ امرأة جميلة ومتعلمة ويعتمد عليك كما أنك أمانة غالية في عنقي من أختي الحبيبة رحمة الله عليها، ويجب أن أطمئن على حالك..

فتأكدت حينها أنه يقصد موضوع المتعلق بخطبتي لبدر..

ثم قلت له: أنا بحال جيدة يا أبي وكل الفضل يعود اليك ولأمي "فيروز".

فرد عليَّ والبسمة تعلو وجهه: أنا أقصد بيت عدلك! ، يعني زواجك من الشّخص الذي يحبّك ويشاركك كل شيء والرجل الذي يقف معك في السراء والضراء.

فلقد حان الوقت لأطمئنّ عليك مع الرّجل الذي سيسعدك ويهتم بك من بعدي.

اعتراني خجل كبير واحمرت وجنتاي بقليل من الانفعال ولم أجد ماذا أقول لأبي، وقتها التحقت بنا أمي وجلست بجانبي، قال لها أبي بلهفة وهو يعتدل بجسمه على الكنبة لقد فتحت موضوع يخص زواجها ويبدو أنها خجلت جدًّا مني ولم ترد عليَّ

استجمعت قوتي وما إن لبثت حتى قلت له بلهجة ثابتة:



أنا لا زلت أدرس يا أبي، ولا أفكر حاليًا بموضوع الارتباط حتى حين إكمال دراستي.

أومأت أمي برأسها لأبي مبتسمة ثم لفّت يدها بحنان على كتفي، وقالت لي بتودد: نحن لا نريد تزويجك الآن يا عزيزتي، لكنّنا فكرنا في أن تتم خطبتك أولًا. أما زواجك تحددينه مع خطيبك.

قال لي أبي بعدأن نحر سجارته وسط المطفأة الموضوعة أمامنا على طاولة الشطرنج.

بوجه مبتسم: أنتِ لم تسألي حتى من هو الرجل الذي تقدم لخطبتك أولًا.. يا عزيزتي؟ ألا يهمك مبدئيًّا أن تعرفي من هو على الأقل؟

أنا وأمّك قد أعجبتنا فكرة ارتباطكما ولكن هذا بعد موافقتك بالطبع يا عزيزتي؛ فالزواج رضا وتراضي.

لم أقدر وقتها حتى على النظر في وجه أبي من شدة الخجل وقلت بسرعة: أنا لا أعرف من يكون؟

فقال أبي متحزمًا وواثقًا: إنك تعرفينه جيِّدًا وليس هناك ما أضيفه من وصف له، إنه"بدر" ابني وابن خالك الذي تعرفينه جيِّدًا، وقد فاتحني منذ يومين بالموضوع وهو الآن ينتظر مني الرد.



بعدما عرفت أنه "بدر" كانت نظرات خالي وزوجته لي تكاد تخترقني طامعين مني إكمال فرحتهما بموافقتي بالرغم أنهما تركا لي حرية الاختيار..

لكن...

لم يسعني حينها إلَّا أن أوافق على عرضهما، فرحت لأن أبي وأمي كانا سعيدين حقًّا بطريقة هيستيرية لفكرة ارتباطي ب"بدر" وأظنّ أنّهما سيكونان أسعد خلال زواجنا.

بالرغم من محبتي لهما الجمّة لأنهما لم يحسساني قط أني مختلفة عن أبنائهما "نجوى" و"بدر"، وتولّيا رعايتي منذ الصغر واهتمّا بسعادتي ومستقبلي بكل حزم وإنسانية..أدركت.. أنّه واجب عليَّ أن أقبل..

و لا يمكنني حتى الرّفض أو الانتظار إلى إشعار آخر وأن أردّ الجميل، ولو أني مهما عملت لهما متأكدة أني لن أستطيع رد فضلهما الكبير علي..

فقلت لهما باستحسان: أنا موافقة وانطلقت بعدها إلى غرفتي بسرعة!

بعد حين لحقت بي أمي" فيروز" وأخبرتني أنها سعيدة كثيرًا لأني سأغدو زوجة إبنها وكنّتها، وأخبرتني أن أبي راضٍ عن قراري وعلى



حسن أخلاقي، كما زفّت لي بطريقة فرحة أنها لم تره بهذه السعادة منذ زمن!

تبادلنا كلامًا كثيرًا عن خصوصيات تتعلق بالخطبة وأمور مستقبلية، وبعد ذهاب أمي تمددت على سريري أضم وسادتي إليَّ..

.. لم أستطع النوم بقدر ما كنت فرحة لأني أسعدت أغلى مخلوقين في حياتي.. أبي وأمي.. إلّا أني شعرت مرة أخرى..

بالحزن يتدفق إليَّ بقوة وقلبي يعاتبني مرة أخرى ولكنّه كان أقوى هذه المرة كأنه ينذرني أن أتوقف!

..لولا الحب، ما تذوق الإنسان سعادة

الوجود ولا انتشى بخمرة الحياة..

ميخائيل نعيمة

"نجوى"

02/سبتمبر/2001

"حفل الخطوبة"

أتذكر دائمًا أقوال"أمي" لكيندة وتوصياتها التي لا تتوقف عن حبّ الذّات والتفاخر والتّباهي، فهي امرأة قوية وعملية في تصرفاتها.. لا تؤمن بالحب..

أما نقاشها معي وتوصياتها لا تدوم طويلًا ،لأني كنت ضدّ أحكامها عن الحياة ولازلت، هي أمي أحبها كثيرًا لكن لي حريّتي الخاصة ونظرتي للدّنيا، وأهم من ذلك أني راضية تمامًا عن قراراتي واختياراتي مهما كانت.

هي تحب عملها كثيرًا، استطاعت بذكائها أن توفّق بين عملها وزوجها وأولادها..تقول دائمًا" لكيندة "أختي التي هي متأثرة بشخصيتها كثيرًا، تاركة فيها انطباعات قوية: يا عزيزتي ..امنحي نفسك حقها ..أحبّي ذاتك ..اهتمّي بها قبل أن تطالبي غيرك بهذا الاهتمام، كوني جميلة لذاتك ،لا تجعلي من العمل والبيت والأولاد سببًا لتهملي نفسك، وقالت كذلك: كوني جميلة دائمًا ..فالرّجال أضعف من النّملة أمام الجمال..

لكن!



سرعان ما بدأت..

صنعت لنفسها تاجًا مرصَّعًا من الكبرياء..

زخرفته بأنوثتها الطاغية..ووضعت تواضعها لؤلؤة عليه..

و ارتدت العفاف ثوبًا لا يضاهيه ثوب وجعلت من حياتها طريقًا إلى القمّة والنجاح بأن تصبح طبيبة جراحة، كلّما أراد قلبها بعض الحب.. أعطته رشفة من العلم..

إلى أن تربعت على قمة العرش وسمت نفسها ملكة الرّضا عن النّفس.

دخلت درسها صغيرة وكبرت حين حفظته وخرجت أميرة لا تقهر، أحدثكم من مملكتها، مملكتها هي فقط من يحكم فيها، رعيّتها الكتب والدراسة، يشاركها دائمًا قلمها هو مستشار أمور المملكة، يحبس الحروف المتمردة في قصائد، ويصنع منها عقدًا فريدًا يتناثر جوهره في سماء صافية لترسم اسما "واحدًا "هو اسمها.

لقد كنت أعرف أن "بدر" يحب كيندة وقد كان هذا باديًا عليه من حيث جميع تصرفاته وكلامه، فأنا جريئة بعض الشيء وحاولت التأكد من هذا الأمر، لكن بدر كان كثير الهرب من الموضوع ولم يستطع الاعتراف لي أبدًا بالرغم من محاولات كثيرة معه..



حتى جاء اليوم الذي سمعت فيه الخبر الجديد والذي نشر السعادة في عائلتنا وأصبح يحوم في أوساط أقربائنا وجيراننا..

"خطوبة بدر أخي وكيندة"

فرح أبي وأمي كثيرًا وسعادتهما كانت أيضًا لا توصف.

بالطبع..

"فكيندة "أختي ورفيقتي العزيزة وابنة عمتي "سكينة" المتوفية - رحمة الله عليها، نشأت في أحضان عائلتنا وكانت شريكتي وصديقتي الأقرب لي، ذات القلب الطيب وجمالها البراق..

هي فتاة ذات شعر ذهبي مسروب على كتفيها وقوام جذاب ورشيق، وأجمل ما تملك سحر عينيها العسليتين، وتلك الخانة الجميلة تحت شفتها السفلية.

و حين تضحك تبرز أهم علامات جمالها تلك العصيدة في خديها، جميلة دون أن تتزين ..بهية الطلة دائمًا.. اهتمامها بمظهرها يهمها، فشخصيتها كانت منحدرة لأمي وطبعها، عكسي أنا تمامًا.تدرس بجد أكثر من أي شخص عرفته.. طموحة.. ومكافحة في سبيل أحلامها.. ولا تؤمن بالحب..



دائمًا تقول لي: يجب أن يتصدر قائمة أولوياتنا الطموح والدراسة وأكثر شيء تحقيق ذلك..تشبه أمي حتى في كلامها..لكنني كنت أعارضها دائمًا في إفراطها اللازم في الطّموح وأن أشياءً أخرى أهم في حياتنا وتحتاج منا خوضها وتجربتها فالدنيا ليست أعمالًا فقط، الحياة جميلة لمن يعرف العيش فيها بحب وأمل وسخاء..كنت متأكدة إلى حدّ كبير أن خلف قوة شخصية " كيندة" قلب رقيق وصدر حنون، لكنها هي من قتلت تلك الأحاسيس وروعتها في سبيل الأحلام الأخرى ..لربما في وقت مؤجل ستحتاج لدعكة سحرية على قلبها لتحريره من السبات..ما يهمّني أني أحبها كثيرًا وأحترم آراءها مهما كان الجدال بيننا.

من وقتها أبي وأمي لا يتكلمان إلاّ عن التّجهيزات والأشخاص المدعوين للحفل الذي قررا أن يبرمج قبل رجوعنا إلى الكلية.

قبل يوم واحد من حفل الخطوبة..

أمي كانت مع السيدة "حفصة" في مطبخنا تجهزان الكاتو والحلويات وتتحاوران في الأنواع التي يجب أن تحضراها..فأمي بعيدًا عن عملها ماهرة كذلك في مطبخها ولديها لمستها المبهرة في أطباقها التي لطالما أحببناها. كذلك ناقشنا أنواع الأطباق التّي يجب توفيرها للأشخاص والأهل المدعوين لهذا اليوم.



أما أنا فكنت أساعد أمي والسيدة "حفصة" وأتعلم بعض الحلويات وطريقة صنعها، فأنا لست ماهرة كثيرًا عكس عزيزتي "كيندة"

و لا أنس تلك اللحظة المحرجة بعد إحراقي لصينية الحلوى المشهورة في مدينتنا "البقلاوى" ضحكت أمي والسيدة "حفصة" عليَّ وقالتا لي أن الحلويات صعبة، وكل نوع منها لديه وقت محدد داخل الفرن، شعرت قليلًا بالإحراج ثم تبادلنا الضحكات نحن الثلاثة.

ثم قالت أمي بعدما حزمت وجهها: لا بأس يا عزيزتي سوف أحضّرها أنا بنفسي واذهبي أنتِ إلى كيندة وساعديها في زينتها وملابسها.

صعدت إلى الطابق العلوي وطرقت باب غرفة" كيندة" ودخلت فوجدتها جالسة على سريرها، أمامها فستانين للحفلة..

الأول أحمر ومعه الرداء التابع له أحمر هو كذلك والذي يغلقه من فوق..

واسع في أسفله وذو طرازة رفيعة، متقن في زخرفته.

أما الثاني أبيض اللون وضيق في منطقة الصدر وذو فتحة خلفية مثلثية الشكل، وبدون كتفين، دقيق في الوسط ومزخرف بروعة في منطقة الخصر بأحزمة شريطية ناعمة والمربوطة على شكل



"فيونكة".قصير في الأسفل ولديه سلسلة بيضاء ذات قلب صغير جميل وقرطين.

وجدتها حائرة في اختيار أحدهما!

في الحقيقة كانا جميلين وجذابين كلاهما.

فأنا اخترت لها الفستان الأبيض لكن رأيي لم يعجبها، وأصرت أن تختار الفستان الأحمر بالرغم من محاولاتي الكثيرة بإقناعها أن الفستان الأبيض سيكون لائقًا عليها أكثر!

بعد قضاء يوم مهول تعبنا كثيرًا فيه وخاصة أنا من تنظيف ومساعدة أمي في تحضير كثير من الأطباق والحلويات، وترتيب صالون الضيوف وتزيينه وتنظيف المنزل كله، بعد نومنا في وقت متأخر من الليل.

جاء موعد الخطبة في اليوم الموالي..

استيقظنا باكرًا..

كل شيء تم ترتيبه وصار علينا التجهز بأحسن اللباس والحلي، تجهزت أمي جيِّدًا كعادتها حيث تزينت أمي بطقم من "القطيفة" من تقاليدنا، أزرق ومطرز بخيوط ذهبية ذي فتحتة صغيرة في أسفله من الجهة اليمنى مع تسريحة شعرها الجميلة وحذائها العالي..



أما أنا فلبست فستاني البنفسجي الذي اقتنيته قبل الخطوبة وهممت إلى غرفة كيندة حيث وجدتها جالسة تسرح شعرها الأملس والناعم بعناية ومع قليل من التوهان والشرود أمام مرآتها وفستانها أحمر اللون كان جميلًا وأنيقًا ومنظم جدًّا معلق بحاملة الملابس على ظهر الحائط بعناية.

قلت لها بشيء من السرور:

صباح الخير كيندة!

فردت عليَّ بعد ملاحظتها لدخولي:

صباح الخير"نجوى" تعالي وجففي لي شعري قليلًا ..قلت لها بابتسامة عريضة، على الرحب والسعة عزيزتي ..

ثم تناولت مجفف الشعر الكهربائي الذي كان موجودًا فوق طاولة المرآة وشغلته كان صوته قوي جدًّا ولزم عليَّ أنا أن أكلمها بصوتٍ عالٍ لكي تسمعني..

شعرك جميل وناعم كيندة فقالت بابتسامة واضحة: شكرا عزيزتي" نجوى "ثم قالت يجب أن نسرع الوقت يداهمنا.. وشعرك أنت أيضا يجب تجفيفه وتسريحه.. قلت لها: شعري كثيف ومتموج وسوف يتعبني كثيرًا..



ثم ضحكنا..

وقالت لي وهي تنظر إلي عبر المرآة بابتسامة.. لا تقلقي سوف أساعدك فيه..

مرت الدقائق وأكملنا التجفيف..

ثم دخلت علينا والدتي قائلة بحماسية بعد اطراءها الجميل على جمال" كيندة": هل أكملتِ يا"نجوى"؟

فرددت عليها بصوتٍ عالٍ ..لا يزال إلَّا القليل يا أمي..

ثم أمرتني بحزم بعد تجهزي أن أهبط إلى المطبخ لأجهز الكعك على الطاولات، فتقريبًا نصف الضيوف والجيران قد حضروا..

ثم طلبت من والدتي أن تعيرني طقم من الحلي يليق بفستاني ابدت موافقتها وامرتنا مرة أخرى أن نسرع.

و بعد مساعدتي لكيندة في ارتداء فستانها، وقفت مبصرة إليَّ ومبتسمة وقد لفت بفستانها أمامي دورتين ممسكة به من الأسفل بيديها.

قالت مبتهجة: مارأيك يا" نجوى "هل الفستان لائق علي؟

هل أبدو مثل الأميرات؟



ثم أبصرت معها وقلت: ما شاء الله! ما هذا الجمال؟

لقد كانت جميلة وجذابة إلى حد كبير.. مثل السندريلا..

كانت تشبه أميرات القصص والحكايا. .ياقوتة براقة.. تأخذ قلب أي قرصان ..

نعم ..عزيزتي

إنه لائق جدًّا وأنت جميلة حقًّا دون حتى أن تتزيني..

أعجبها كلامي واطرائي كثيرًا..

ثم تركتها تكمل تزينها بقليل من المكياج وهبطت إلى الطابق السفلي حيث وجدت كثيرًا من بنات الجيران والأقرباء..

سلمت عليهم وتبادلنا الحكايات والضحكات..

كان الفرح يسود الأجواء..

ثم تذكرت الكعك والمطبخ؛ فاستاءت كثيرًا وهمت بالإنصراف إلى المطبخ لمساعدة أمي، بعد ذلك هبطت "كيندة"مع أمي بإيقاعات بطيئة وكل النساء والبنات يراقبنها والزغاريد تحوم في المكان..

كانت جذابة في طلتها ومبهرة بحسنها، كانت مثل القمر في الليلة الصاحية



لكن" كيندة" كانت مضطربة قليلًا وخجولة تحت أعين الكثيرات اللواتي تسمرن يراقبنها بشغف كبير من قريب وبعيد..

كنت جالسة بجانب كيندة أهون عليها بعض الخجل والاضطراب، الأجواء تسودها الحكايات والضحكات وصخب الموسيقى والرقصات لبعض البنات، بعدها أتى موعد دخول" بدر" أخي..

شرع إلى الحفل متأنقًا في بذلته السوداء وتسريحة شعره الجميلة، والسعادة تغمر وجهه..

أجلسته أمي بجانب" كيندة "في الكنبة الكبيرة وأمامهما طاولة الكعكة الخاصة بالحفل مكتوب عليها "حفل خطوبة بدر وكيندة "بالكريمة الحمراء، مع تواجد أنواع كثيرة من العصير معها..

و قد اجتمعت كل النساء حولهما يراقبنهما بلهف وفرح من شدة جمال المنظر، كانا لائقين على بعضهما كثيرًا..

هما يراقبان بعضهما بابتسامات رقيقة..

أما أنا سعيدة جدًّا لهذه اللحظة وطارت بي سعادتي للحلم بجلوسي في مكانها يومًا ما مع حبيبي" سعيد"

أعطت أمي الخاتم" لبدر" ليلبسه" لكيندة.."أمسك يدها برقة وألبسها الخاتم بحنية، أما هي فخجلت واضطربت قليلًا حين تناولت



الخاتم من أمي وأمسكت يده وألبسته إياه تعالت الزغاريد وتبادلا الهدايا وشرب العصير..

كان يومًا حافلًا وجميلًا..

إلَّا أني لاحظت بعض الشرود والحيرة في وجهها وتخيلت أنها لم تكن سعيدة كفاية كأنها أضاعت شيئًا ما..أمّا أبي فقد كان مهتمًّا بضيوفه وأصدقائه من المدعوين.. وأتى فيما بعد ليهنئ كيندة..

****

انتهى الحفل..

و جاء وقت تنظيف المكان لقد أذعنت للأمر وبات عليَّ مساعدة أمي والسيدة "حفصة"

تقاسمنا العمل نحن الثلاثة..كرهت هذا العمل الطويل في المطبخ وكنت متعبة كثيرًا وزادتني الصحون الكثيرة استياءً.. قضيت قرابة ساعتين في المطبخ فيما "كيندة "مستريحة في غرفتها.

بعد إكمالي أحسست أن نفسي ضاقت علي والتعب ينهش جسمي وأني أحتاج لنوم يومين متتاليين.

هممت إلى غرفتي بعدها..

وبعد أخذ حمام منعش وتبديل ملابسي، استلقيت على فراشي ولم أحس حتى كيف سرقني النوم.

****



عدنا للدراسة والكلية.

والتقيت بحبيبي" سعيد" بعد طول اشتياق، فأنا لم أره منذ قرابة شهرين كانت السّعادة تغمرني أثناء لقائه وقلبي يحن ويلين..يبهجني في حديثه معي ويناغم قلبي بتغزّله الرقيق..توالت الأيام.. ومن حين إلى آخر..يخرج أخي" بدر" مع "كيندة" للتنزه أو تناول العشاء في إحدى المطاعم وحين عودتها كنت ألتقيها في غرفتها وأسألها عن يومها لكنها كانت تجيبني بكلام قليل وهزيل وحماس ضعيف،و تصطنع بعض الابتسامات على وجهها لا أكثر!

وقد دامت هذه العلاقة سبعة أشهر وكان يجب أن أفتح الموضوع مع" كيندة "فهي كذلك من حقها أن تحبّ ومن حقّها اختيار الرجل الذي تحبّه هي وليس رجلًا محتمًا عليها ..حتى ولو كان أخي..

في أحد الأيام زارتني "كيندة" في كليتي والتقت بي وقت الغداء وقد كان حبيبي "سعيد "رفقتي، الذي عرض عليها أن تلتحق لتناول الغداء معنا، توجهنا نحو مطعم قريب من الجامعة وأثناء غدائنا تكلمنا وعرّفتها عليه، وأبدت اعجابها بحسن اختياري بعدها انصرف عنا..فهو ملتزم بمحاضرة على الساعة الواحدة أما أنا فقد أكملت دوامي.

احتسينا القهوة وهنا سألت كيندة بلطف: هل أنت سعيدة حقًّا مع أخي" بدر"؟ قولي بصراحة ولا تخفي عني؟

و أعدك أن مهما يكن جوابك سيكون سرًّا بيننا، فأنت تعرفينني جيِّدًا .

كان سؤالي محيرًا جدًّا لها ..كأنه لم يعجبها البتة!

ثم قالت: نعم أنا سعيدة "فبدر "رجل جيد وذو أخلاق..

ثم بدى لي لو أتأكد أكثر وقلت لها: وهل تحبينه؟

فقالت لي وهي مثبتة عينيها عليّ وبقليل من الحزم: كيف يمكن لك أن تكوني بهذه السّذاجة ؟ وتعتقدي أن الحب سيفتح لك كلّ الطرق..

و تظنين أنّه مثل لمسة سحرية تستطيع إصلاح كل تحطيم بحركة خارقة واحدة فقط، الحب ليس مهم ..فالثقة والتفاهم والاحترام أساس العلاقة.. و رضا أمّي وأبي عليَّ هو المهم بالنسبة لي.

لم يعجبني انفعال" كيندة "فلم يكن سؤالي إلَّا للتحقق من سعادتها فهي أختي ورفيقتي وشريكتي،أيقنت أنّها لا تحبّ أخي "بدر" بقدر ما يحبّها ففي آخر حديث لي معه صرّح لي بكل ثقة وشجاعة بحبّه الشاسع لها، كما أيقنت أنه أصبح خطيبها تحت تأثير أبي وأمي فقط عليها، أي بمعنى أصح "رد الجميل لهما بالقبول" و هذا



بالنّسبة لي انتحار وهيّ الّتي قبلت أمّا والديّ فأعرفهما جيِّدًا لو رفضت، لتفّهماها وقبلا بالأمر فتكون لها فرصة اختيار شريك حياتها الذي تحب لكنّها تسرعت!

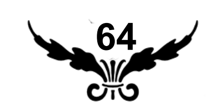
قلت لها باستحسان:" كيندة "يجب ألاّ تتسرعي والزوج ليس شيئا نشتريه وعند تحطّمه نشتري غيره..إنّه رجل و إنسان ستقضين حياتا كاملة معه.

"و الحب هو الأهم والأبقى.. بدون حبّ يموت كل شيء.."

كان كلامي قد أسرها وأحسّت بالذنب تجاه نفسها وقالت لي وهي تستند إلى ظهر كرسيّها، تشيح بنظرها نحو اثنين كانا في طاولة أمامنا بدى أنهما حبيبين، وبحرقة بادية كأنها استسلمت لكلامي:

- ليس كل ما نتمناه نلاقيه يا" نجوى". فالحبّ شعور السلاطين وقليلًا مانحصل عليه..

- إنّك تسرعتِ في قبولك بخطبة أخي" بدر" ويجب أن تراجعي قرارك، لازال الوقت أمامك، وأنصحك بإعادة مراجعة نفسك ومراجعة قلبك"فبدر" أخي سوف يجد فتاة أخرى أنا أعرفه جيِّدًا، وأنت تعلمين أن بنات كثر تحبّه ولا تنسي علاقته مع "رانيا" التي انتهت بمشكلة كبيرة أنت تعرفينها فهو ليس ذلك الرجل الذي قد تضحّين من أجله أليس كذلك؟



أجابت باستياء: لا أستطيع ..فبعد تلك السّعادة والفرحة التي منحتها لأمي وأبي ..كيف تريدين لي أن أحرمهما إيّاها بعد كلّ ما فعلاه من أجلي!

قلت بإصرار : أبي شخص متفهم يا "كيندة" وأمّي بالرّغم من حبها الكبير" لبدر" ولك، واجب عليها تقبل الأمر و"بدر" كذلك، فليس من الحق والعدل تدمير حياتك من أجل سعادة الآخرين..

قالت لي بعينين باردتين ومتحدّيتين: لا يمكنني ذلك وأنت لا تدركين صعوبة ما تقولين، وقد أفتح مشكلات عائلية وعداوة، لقد اقتنعت أنّه هو قدري ورجل من اختياري أنا، كذلك أنا متقبلة الموضوع ومرتاحة هكذا..

كأنّ كلماتي دقّت مساميرًا على قلبها لوقت طويل ،فأرادت أن تتحاشى الموضوع وهذا واضح وضوح الشمس من تعابيرها.

أردت من كل قلبي أن تكون سعيدة مثلي.. وأن تجد نصيبها وحظها من الحب.. لكن بدى أنّ بدرًا مكتوب عليها ..أو هكذا ظننت!

أفريل/2003

"كيندة"

.. مرّت الأيام والشّهور كالعادة مع كليّتي ودراستي وعائلتي، الأمر الوحيد الجديد في حياتي هو خطيبي" بدر". الّذي مضت على خطبتي معه قرابة السنتين، لم تكن أيّامي معه سوى أيّام عادية كسائرها.فأنا أعرفه منذ كان عمري خمسة أعوام.

لكن أكثر ما أبغضه في هذه العلاقة كوني لا أبادله نفس القدر من المشاعر ولعلّي كنت أظلمه طول فترة خطوبتنا.. و ماذا بوسعي أن أفعل؟

كيف أستطيع الهرب من قدري؟ كيف أستطيع أن أسلب خالي "سالم" وأمي" فيروز "أهم علاقة أسعدتهما وفرحا كثيرًا من أجلها..كلّ لحظة يكون فيها "بدر" معي أتذكّر بالتدقيق كل كلمة حب وكل معاملة لطيفة منهما لي.. كل قطرة حنية لم يبخلا عليَّ بها..أرى وجه خالي وأمي" فيروز" في وجه"بدر"، وأرى أنّه يجب عليَّ الاستمرار حتى ولو كانالمقابل التّضحية بحياتي، لقد أدركت أن الحب مهمّ لحّد ما إدراكًا حتميًّا، وأن الحبّ طريق آلت إليَّ أجواؤه والحاجة إليه بعد الهروب منه كثيرًا وادّعاء بالقوة!

فالحب يعني الحياة..



و ما يعذّب قلبي أكثر أنّه لم يحبّ"بدر" يومًا وأنّه يدقّ ليحب يوما ما شخصًا آخر لا أعلم أين هو ..وأين يعيش؟ ولكنّي أعلم أنّه حي.. وينتظر قدومي في أي لحظة..شخص يعطي قلبي لمسة الحب وطريق السعادة..

في عشية الجمعة طلب مني "بدر" أن أجهز نفسي للتنزه قليلًا ونتناول العشاء في مطعم يفضّله..هو مطعم صغير وفاخر وذو طاولات قليلة.. زائروه عشاق وأحبّة يتبادلون العشق تحت موسيقى شرقية طرية..صاحبه رجل ودود ينشر أزاهيج الحب والعطف في أطباقه الشهية.

كان" بدر" يحدثني عن تجهيزات العرس والمستلزمات التي يجب اقتناؤها بلهفة وشوق، ويسألني ماذا يجب أن نختار للعشاء، كان المطعم جميلًا ورائعًا ..يسحر القلوب برومانسيته..سحر جميع المتواجدين فيه إلَّا أنا! ..

برود عميق تخلّلني ومزاج غائب يسطو علي، حتّى أنني تمنيت للحظات جلوسي مع شخص آخر يهواه قلبي مكان "بدر" وتخيلت ذلك إثر حديثه..

و عند إبصاري للحقيقة لم أرَ إلَّا "بدر" أمامي يرمقني بنظراته وغروره أحيانًا وكلامه عن مستقبل لا أعلم منه شيئًا..



"الأم مدرسة إذا أعددتها، أعددت

شعباً طيب الأعراق"

حافظ إبراهيم

"لؤي"

هكذا أخبروني..

10 /أفريل/ 1976

كان يوم ولادتي في منزلنا الصغير الواقع في حي السويقة بالمدينة القديمة

حي السويقة. .رمز من رموز مدينة قسنطينة..أزقّته الضيقة نحت عليها ذكريات أجيال كبرت ونشأت على حبّها، ترعرعت فيها ذكريات الطفولة وانطلقت منها أحلام الشباب.

منازله القديمة ذات تصميم عمراني تقليدي..تبهرك من أول طلة .. وعند تمعّنك لحجارتها ستعلم أن عصورًا مضت على قسنطينة..مهما ابتعدت وسافرت عن السويقة سيعيدك الحنين والشوق إليها.. محلاتها العتيقة.. مشهورة بالألبسة المتحوفة ألبسة العرائس التّقليديّة المتنوّعة"جبّة الفرقاني" أو "القندورة القسنطينية"..

دون نسيان محلاّت النّحاس ومحلاّت الحلي وصناعة الزرابي .. فضلًا عن محلات الطعام الشعبي، كما تنبعث منها روائح الورد المقطّر تقليديًّا والحلويات التقليدية التي تشتهر بها المنطقة..



السويقة.. هي القلب النّابض لمدينة الجسور المعلقة..تعلّق الناس بالمكان وحبّهم له، ليس محظ صدفة بل لأنه مليء بالحياة طوال اليوم والشهر والسنة، كما يضمّ حي القصبة العتيق الذي يحتوي على أكبر سوق بالمدينة هو "سوق العصر"، كما يلقب بسوق "حبيب المساكين" كل من يزوره لا يعود فارغًا حتى ولو كان لا يملك فلسًا واحدًا.. مكانه حيث يتربع وسط السويقة.

من شارع إلى شارع حكاية..و من زنقة إلى زنقة حلم..ومن زقاق إلى زقاق تغريدة..

شوارع مصقولة بحجارة ملساء تبعث في نفسك روح المدينة ومنبع انبثاق شريانها، حارات عدّة كل باسمها، حارة الدبّاغين وحارة الحلواجية وحارة الصيّاغة وحارات أخريات كثر، حارات توارثها الأبناء عبر الآباء والأجداد..منزلنا الّذي يتواجد بالحيّ.. يحتوي على مطبخ صغير وغرفتين وفناء صغير تتسلقه سيقان بعض الزّهور الصفراء المتبرعمة.. والدي هو عامل بسيط في معمل قديم للحديد والصلب.. يتعب كثيرًا ويجني مالًا قليلًا.. يوم ولادتي تعبت أمي كثيرًا وأغمي عليها من فرط النّزيف وقد ساعدتها جدتي في إنجابي..فرح أبي كثيرًا لقدومي ولسلامة أمي، و قدظنّ أنّها لن تنجو بعد ما عانته من تلك الولادة ..لكنّ فرحتها بي كانت لا توصف، لحظة استيقاظها من غيبوبتها كانت مستلقية على سريرها الحديدي الذي تغير لونه كثيرًا بمرور السنين وجبينها ملفوف بكمّادات المياه الباردة التي تستبدلها جدتي من حين



إلى آخر..والأمطار ظلّت تتساقط وهي تراقب هطولها من النافذة القريبة من سريرها..

قائلة بصوت مرهق وكئيب: أين ابني؟ أنا لا أراه؟

أين هو؟و لم تراعِ حتى إعياءها وضررها الشديد..

فردت جدتي وهي تطمئنها: لا تقلقي..

ابنك عند زوجك وهو بصحة جيدة..

حينها دخل أبي وهو يحملني بعناية، وسلّمني لأمي التي أمسكتني برقّة ولهفة، وباغتتها الابتسامات وبعض الدمعات الحارقة على خديها، تنظر إليّ بصمت وحنية وأبي وجدتي يراقبانها عن قرب.

ثم قال أبي بفرحٍ: الحمد لله على سلامتكما يا عزيزتي ..إنه جميل مثلك وسيكون ابنًا رائعًا يكمل سعادتنا.

ردّت مشيحة ببصرها نحوه وبابتسامة سعيدة: نعم يا غالي -إن شاء الله- فأنا صبرت كثيرًا ودعوت الله أن يرزقني ابنًا يملأ عليَّ حياتي.

..فقد أنجبت بعد ست سنوات من الانتظار ،أحبّت الأطفال كثيرًا، ورجت الله أن يرزقها بمولود فتربّيه بحب، قدر قلبها الطيب والحنون.. وتكبره على الأخلاق والإحسان..و يهوّن عليها مشقة الحياة..

توفيّ والدي بعد عام من ولادتي، إثر حادث في المعمل الذي يشتغل فيه..



كان فراقًا صعبًا جدًّا لوالدتي أردى قلبها حزينا ..لكن بوجودي صار عليها أن تصبر في مواجهة الحياة الضّنكة والمرة وحدها وأن تهتم بي وترعاني تحت ظروف قاسية وصعبة.

لقد كانت الأم والأب بالنسبة لي.. لم تترك أي عمل دون أن تشتغل فيه لتعيلني ..غسلت ملابس الجيران مقابل مبالغ مالية لا تكفي حتى ثلاث وجبات..

باعت الملابس النسائية البسيطة التي كانت تأخذها من المحلات وطبعًا كانت تكسب فائدة أقل بكثير من فائدة أصحاب السّلع، باعت حتى الخضر والفواكه على طاولات صغيرة بسوق المدينة..

أحيانًا تتركني عند جدتي للاعتناء بي وأحيانًا تأخذني معها كنت أكبر يومًا بعد يوم، وأنا أرى نّظرة الاستحقار القاتلة من النّاس لأمي.. لقد عانت كثيرًا من شدة الفقر..كانت امرأة شريفة ومحاربة في سبيل لقمة العيش ولم تعط يدها يومًا لأحد ..كانت مثالًا عظيمًا للمرأة المكافحة..و رمزًا من رموز العطاء والأمومة..

وأخيرًا وبعد بحث طويل استطاعت جدّتي أن تجد لها عملًا مستقرًّا وهو عاملة تنظيف في المستشفى الكبير بمدينتنا.. بقسنطينة..

كان الأجر قليلًا بعض الشيء لكن أمي فرحت به وباشرت عملها في المستشفى بكل إخلاص وتفانٍ.. أحيانًا كانت تأخذني معها..



أراقبها وأنا أقطم رأس الحلوى بأسناني بلطف وأنا جالس على زاوية الكرسي الطويل الخاص بالمتوافدين للمستشفى، أراها وهي تغمس رأس المنشفة في قعر الدلو وتمسح أرضية المستشفى الملساء بجد وتتوقف أحيانًا عند تعبها، تمسح قطرات العرق التي تشع مثل الألماس من جبينها.

و تضع يديها تحت ظهرها الذي يؤلمها من شدة الانعكاف أثناء المسح، تبصرني بابتسامات مقدسة وعطوفة.. بالرغم من صعوبة معيشتنا وقسوتها إلَّا أني كنت سعيدًا جدًّا مع أمي..

.."نعم"..

أذكر جيِّدًا سهرها بجانبي أثناء مرضي.. وقراءة القرآن ويدها الكريمة تمسح على رأسي..أذكر لمجتها التي تدسّها في جيب محفظتي الصغيرة.. وأنا هائم إلى مدرستي..قطعة الخبز مدهونة بالمربى وقليل من الجبن البقري..أذكر حكاياتها لي في اللّيالي الصيفية.. الممزوجة بإحساسها المرهف وبريق عينيها اللاّمعتين..أذكر ملعقة العدس السّاخن وهي تبرّدها بهواء ينبعث من صميم حنانها ..قبل أن تدخلها فمي برفق ورقّة..أذكر تحميمي بالماء الساخن وقطعة الصّابون التي تمسح جسمي بحب وطمأنينة،أمّي الحبيبة هي مثالي وقدوتي، هي عطر يفوح شذاه وبريق يتلألأ في سماه،عطف وأمان، رحمة وجنان،كانت قمرًا دائمًا ينير دربي أثناء خوفي وعثراتي،حضنها نبع الحنين وبسمة السنين،علّمتي أن الخير أقوى من الشر مهما طال



شأنه وساد.. وأنّ الصبر مفتاح الفرج.. وأنّه بالحب تلين أقسى القلوب..و أن الجمال الحقيقي هو جمال الروح لا جمال الظواهر..علمتني أن الأيادي التي تساعد أقدس وأطهر من الشفاه التي تصلي..و أن رضا الوالدين من رضا الله..في كل يوم معها أحببت الحياة أكثر هي مدرستي الأولى التي تعلّمت فيها كل يوم درسًا جديدًا، تعلمت منها أسمى مبادئ الحياة، كانت لي نعم الجليس وخير الأنيس.. هي أقدس كتاب تداولت صفحاته.. عطاء دون عناء..

أمي هي نبض قلبي وحبي لها بلا حدود..

فيفري/1991

.. كبرت قليلًا وأصبحت بطول أمي الحبيبة..

صار بإمكاني تقبيل جبينها قبل ذهابي إلى الإكمالية مع دعواتها التي لا تفارقني أبدًا..تدهورت قليلًا أحوال البلاد وعشنا أيّامًا أحرَّ من الجمر، أيّام رعب وخوف.. جماعات إرهابية تدعو إلى العنف والتطرّف والتعسف باسم الدين، وتركّزوا على فئةالمجتمع الأمية فالجهل أفضل نقطة ضعف يمكن استغلالها، لينشروا سمومهم ودعاواتهم الضّالة، تحت شعارات إسلامية كما مارسوا كلّ طرق التخويف والوعيد.

انطلق صراع شديد دامٍ بين الجيش الذي يحارب من أجل سيّادة الوطن وسلامة الشعب وبين هذه الجماعات، التي تدعو للقتل بغير حق وممارسة طقوسهم المستوحاة من مكرهم وسوء تدبيرهم، فقد صاروا تهديدا حقيقيّا لأمن البلاد ووحدة الوطن وسلامة الشعب والأهالي..

وبات الشّعب يعيش في خوف ورعب مستمر، كان كلّ رجل منّا عند مقصد محلّ لقمته لا يدري إن كان سيعود ،كان حظر التجوال أمراً لابدّ منه لسلامة الأهالي وتدارك القتل تحت ظلمة الليل الحالكة،



شهداء من رجال الشرطة والجيش والدرك، كل يوم وأحيانًا بأعداد كثيرة ..

أمّهات يبكين على أبنائهن بحرقة فقد قتلوا بغير حق، النّحيب والحزن خيم على أوساطنا وسمائنا، لسنوات من الأسى والدمع..

حكايات تروى داخل المنازل وفي وسط المقاهى... وفي ثنايا الأسواق.. لاتبعث في النفوس إلّا الخوف وقسوة القلوب وانتظار الموت في أيّ لحظة..

لم تصبر الدّولة لوقت طويل مراقبة شعبها يخسر الأمان وترابها تملؤه الدّماء.. وبدأت بحملات كثيرة ومشددة لإنهاء هذا البلاء العظيم الذي حلّ بنا..كنت أرى خوف أمي الشديد عليَّ وقلقها الدائم ودعواتها إلى الله التي لا تفارق شفتيها، توصياتها تزيد يومًا بعد يوم حتى صرت أخشى من أضعف صوت... لكنّ الأيام توالت وتحسنت أحوال الوطن قليلا واستطاع الجيش أن ينقص من هول ظاهرة الإرهاب..

في أحد الأيام في مدرستي الإكمالية وفي الطور الأخير للشّهادة قرّرت إدارة المؤسسة وبالتنسيق مع أستاذنا السيد "سي الطاهر" الأستاذ البشوش..



قصير القامة، ذو كرش يسبقه وتقاسيم وجه حزينة أحيانًا وعند تعصبه يصبح قاهرًا فيعاقبنا بشدّة... لكننا أحببناه وتعلمنا منه الكثير... اتّفقوا على أخذنا في رحلة سياحية وتثقيفية إلى مدينة "شرشال" بولاية "تيبازا" وزيّارة معالمها التّاريخيّة.في حين إخباري لأمي عارضت ذهابي مبدئيًا، لكنّي أصّريت على ذهابي مع أصدقائي وتوددت إليها مرارًا وتكرارًا، وقلت لها أنّهما يومان فقط.

أمّي لم تستطع رفض الاقتراح وقبلت..

انطلقنا في يومنا الموالي مع أستاذنا ومرشدنا "سي الطاهر" في حافلة صغيرة..

انطلقنا بأناشيدنا الدّينية والوطنية..

سعادة كبيرة قد غمرتنا..تحكيها براءة قلوبنا..جمال المناظر من نوافذ الحافلة..أثناء وقت الغذاء توقفنا في مفترق الطرق.. وبجانب الطّريق تحت السماء الزرقاء المبهجة وتغاريد طيور الحسون الشذيّة.. جلسنا وسط العشب نتاول غداءنا.. خبز وعلب السّردين والبيض المسلوق وسلطة الجزر والزيتون الأسود.. والمياه الغازية.بمراقبة ومساعدة أستاذنا الكريم..ثم أكملنا طريقنا وحين وصولنا لمدينة شرشال.



مدينة مطلّة على البحر المتوسط وهي المدينة الأمازيغية التي كانوا يطلقون عليها اسم "إيول"، التّي مرّت عليها حضارات عدّة، قرطاجية نوميّدية وبيزنطيّة، وشرشال هي كلمة عربية قديمة تقصد "الشر الغادر"، هكذا أخبرنا أستاذنا في وصفه الذّي يشي بمدى حبّه لها ولازلت أتذكر جيِّدًا ذلك البريق الخارج من عينيه الخارقتين ونحن نمرّ من أمام "أكاديمية الضبّاط والكلية الحربية"حين أخبرنا أنّ في ذلك المكان يتدرّب أبطال وأشاوس جيشنا الوطني، سليل جيش التحرير التي تعدّت سمعتها حدود الوطن من إنجازات باهرة، ومستوى قتالي وتكتيكي وتكوين عالي، ووصفها أنّها القلعة الحربية لنخبة من الرّجال والأبطال.

تغلغل كلامه قلبي وانتشر الحماس فيَّ، وتسارعت دقّاته وهناك ولد طموحي الأوّل في الحياة.. في أن أغدو رجلًا وبطلًا من تلك النّخبة التي نفتخر بها.

لم أقدر منع لهفة نفسي من مراقبتها وعدم إشاحة بصري عنها والحافلة تمضي مغادرة المكان، بدأ حلمي منذ تلك الوهلة، وصار يكبر في صميمي يومًا بعد يوم، أكملنا رحلتنا الجميلة في اليوم الموالي ومضينا عائدين إلى مدينتنا المحبوبة.

حين عودتي فرحت أمي كثيرًا وسألتني عن الرحلة ومشوارها، سردت لها كل ما تعلمناه وكل ما صار معي هناك.



استطاعت أمّي أثناء سنوات عملها في المستشفى توفير مبلغ مالي معتبر –بالنّسبة لمستوانا المعيشي حينها - لتشتري آلة خياطة تقليدية.. تعيننا على مصاريفي التي زادت قليلًا كانت تعمل نهارًا بالمستشفى، وتعمل ساعات طويلة على الخياطة في الليل، تشقى من الخيوط الأولى للفجر حتى شفق الليل الحالك.. دائمًا ما أراقبها كل ليلة وأنا أدرس على طاولتي البسيطة في صالوننا الصغير الذي يحتوي على كنبة وحيدة وخزانة صغيرة في الزاوية وفوقها المذياع، أما الزاوية المقابلة كانت موقع خياطة أمي وعملها الجديد..

"حقًّا إنها مثال جلي للكفاح والصمود"

تعودت على صوت الآلة ينخر وسط أذني كل ليلة وعلى مدار السنوات تتساقط الكلمات مني والوصف يعجز اللسان عنه، عن فضلها وعطائها العظيمين تّجاهي.شعرت بتعب أمي الكثير من أجلي، أمّا هي فلا تشكي تعبها بتاتًا.

طالما راقبتها وهي ممسكة لمقود آلة الخياطة تحركه إلى الأمام وإلى الخلف وملابس الجيران الكثيرة التي بجانبها.. و رجلها على دوّاسة الآلة وعينان حزينتان ومتحديّتان تركزهما على إبرة الآلة..

أحسست بإعيائها بعمق وتمنيت من كلّ قلبي لو أريحها من تعب هذه السنين.



كنت أواظب دومًا على برّها ومساندتها وإكرامها بشتّى الطرق، ودعوت الله كثيرًا في نفسي أن يوفّقني وأعوضها عن كل يوم متعب مرت عليه، وعن كل لحظة حزينة مرت عليها وعن كل سنوات القهر.

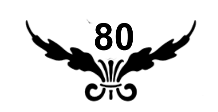
"انتقلت إلى الثانوية"

وأصبحت رجلًا ذو بنية قوية ويعتمد عليه، صرت أدرس نهارا وأبيع الجوارب والملابس الداخلية الرّجالية في سوق حينًا بعد دوام الدّراسة كلما أتيحت لي الفرصة.

كيف لا؟! "وأمي هي فاطمة رمز الكفاح"

تعلّمت منها الاعتماد على نفسي ومساعدتها بأي طريقة رغم أنها كانت معترضة لمّا ارتأت أنّه يجب علي التركيز في دراستي فقط، لكن قلبي لم يطاوعني وألحيت على مساندتها في مشقة الحياة.

و بفضل قدرة الله وأمي الحبيبة تفوّقت ، ومضيت إلى سنة البكالوريا، سنة تحديد المصير.فوجب عليَّ زيادة الكدح والدراسة أكثر لأتحصل على معدل يحقق حلمي في دخول أكاديمية الضباط ومساعدة والدتي.و بدأت عامي الجديد بإصرار وشغف كبيرين..



سبتمبر/ 1994

أمّي لازالت كما هي.. بإصرارها وكفاحها وحبّها وحنانها، مرّات عديدة تتعب صحتها فوق اللازم، لكنها سرعان ما تعود قوية كما كانت بالوصفات العشبية التي تعالج بها نفسها أثناء مرضها أو أثناء مرضي أنا في بعض الأوقات ولا تزور الطبيب اقتصادًا للمال وتوفيره لمراعاة احتياجاتي الدراسية واللّباس.

كنت أمسح دمعها في كلّ لحظة بكت فيها، وساندتها في كل دقيقة مرض كانت قد زرعت في روحي قيمًا لا تندثر، لكنني أحيانًا أتسرع في تصرفاتي، وأخطئ فتعاقبني ولكنني سرعان ما أحصل على صفحها و غفرانها.

رغم أنّ سبب انفعالاتي طالما كان أبناء الجيران الذّين نادوني ب"ابن فاطمة" أو "اليتيم" كأنّني من اختار ذلك أو كأنّ اليتم عيب.

عيّروني دوما كوني فقدت أبي في سن مبكرة، وهذا ما جعلني أتحاشى تكوين صداقات متينة.. كان غيظي يشتد و كذلك كرهي لهم فأشعر برغبة شديدة في اقتلاع رؤوسهم..

في بعض الأوقات أتشاجر مع أحدهم وأعود لأمي ملطخًا بالدماء والكدمات على وجهي، كانت توبخني كثيرًا وهي تقدّم إلي الإسعافات.. قائلة:



"لؤي"

ألا تتوقف عن عراكك الدائم مع الجيران؟ ألا تستطيع التحكم بنفسك وأن تتحاشاهم؟!

فأجيبها باستياء كبير: إنهم يعيروني بك يا أمي! وأنا لا أحب هذا!

قالت لي: يجب أن تضبط نفسك يا بني!.. ولا تترك غضبك يتحكم فيك.. ويأخذك إلى طريق تندم عليها ،كل إنسان في الدنيا تميّزه أخلاقه وحسن معاملته مع الناس مهما ظلموه..اصبر وتابع حياتك بحب ولا تترك الكره ينتقل إلى قلبك فيعميك عن الحقيقة..وابتعد عن كل مختال فخور.

بعدها أحسست بذنب كبير وطلبت السّماح من أمي.

كنت في إحدى أيّام العطل بالسوق وبالضبط في محلات بيع لوازم الخياطة، لأقتني بعض المستلزمات لأمي، وأثناء عودتي وجدتها في المطبخ تجهّز طبق العيش الحار بالقديد والمحمصة ورائحة التوابل تكاد تخترق أنفي.. فأنا أحب هذا الطبق كثيرًا كذلك طبق المقرطفة الذي تعدّه والدتي بإبداع وأطباق أخرى كثيرة.و أبصرت بجانبها ابنة الجيران "مليكة" الفتاة الحسناء التي تصغرني بسنتين تدرس بالطّور الأول من الثانوية التي أدرس بها، ممتلئة الجسم وذات شعر كستنائي مسرح، حنطية البشرة قصيرة القامة، وتملك عينين سوداوين



كبيرتين ، تزور أمّي منذ صغرها.. أحيانًا لجلب بعض قطع القماش لوالدتي من أمّها ونساء أخريات لخياطتها أو طرزها..

تحبها أمي كثيرًا.. وتعتبرها بمثابة ابنتها.. كبرت على حبّ أمي لها منذ صغرها، تزورنا دائمًا، متهورة في بعض الأحيان لكنها تملك قلبًا جميلًا.. دائمًا ما تشاركني طريقي إلى الثانوية أينما أتيحت لها الفرصة.

أما بالنسبة لي فكنت أحيانا أتهرب منها، للأقاويل التي بدأت تزداد حولنا.

فهي بالنسبة لي أخت وصديقة فقط.

يومها شاركتنا طعام الغداء.

-السلام عليكم!

-و عليك السلام يا "لؤي" هل أحضرت كل ما دونته لك؟

-نعم أمي..

وبابتسامة:

-تعال وشاركنا الغداء ..إنه طبقك المفضل..

-طبعا فأنا جائع جدًّا!



أثناء تناولي قطعة القديد ..من وسط الطبق.. أحرقت لساني وأرجعتها بسرعة، انفجرت "مليكة" في وجهي ضاحكة خجلت كثيرًا وابتسمت أمي.. وقالت:

على مهلك يا عزيزي، فالقديد لا يزال ساخنًا.

ثم أشاحت أمي بصرها نحو "مليكة" التي كانت تحرجني بنظراتها الكثيرة وتأكل ببطء مبتسمة قالت لها:

هل أعجبك طبقي؟

فردت عليها: نعم يا "خالة" إنه طعِم ولذيذ.. ثم سألتها أمي عن حالة أمها الصحية الخالة "طاوس"التي تعاني من مرض السكري، فأخبرتها أنها بصحة جيدة حاليًا وتزور الطبيب من حين إلى آخر.

زوجها هو "طاكسيوور" الحومة..هكذا نقول له.. يملك سيارة عائلية للنقل عبر الطرقات ،رجل فاضل ويحترمنا كثيرًا..

بعدها انطلقت إلى غرفتي لمراجعة دروسي للأسبوع الجديد، أما والدتي و"مليكة" فقد همّا إلى تنظيف المطبخ وتبادل الحكايات..



"مليكة"

..فرحتي لا توصف وأنا أخرج كل يوم من بيتنا، أترقّب خروج "لؤي" ابن الخالة "فاطمة"، للذهاب معًا إلى الثانوية لقد أحببته منذ صغري وحبه يكبر ويزيد في قلبي كل يوم لا أتمالك نفسي وأنا بقربه..

أحس بطيف غريب يسري داخلي وأشتاق كثيرًا أثناء بعده عني..

أزور خالتي"فاطمة" على الدوام وأحيانًا أختلق الحجة للذهاب هناك ولكن حقيقة كانت لرؤية "لؤي"، الذي لم يحس بي أبدًا ولا يدري بحبي الكبير له..

عند حديثي معه أحس أني أستطيع أن أفعل أي شيء من أجل هذا الفتى، أو أضحي بأي شيء في سبيل حبه لي..

بين الفينة والأخرى أراقبه من نافذة منزلنا العالية التي تطل على شارعنا الضيق، وأرى "لؤي" وهو جالس وحده على عتبه منزل مهجور أمامنا كان كثير التحديق وقليل الكلام وقليل الأصدقاء.

هوسني بحسن جماله وطيبة قلبه، فهو طويل القامة وقوي البنية..



وسامته البادية كالشمس ،عيناه السوداوين الجميلتين لا تفارقان مخيلتي.. ورجولته التي زعزعت خاطري..خجله الدائم يبهرني..

كان معظم فتيان الحومة يغارون منه؛ لأخلاقه العالية وحسن شكله...

وحين مشاجرته مع بعض الفتية، أخاف عليه كثيرًا وأزوره للاطمئنان عليه، لا سيما مع "رامز" الفتى البغيض ذو الخلق الفاسد، والده في السجن منذ زمن..

أما هو فقد طرد من الثانوية لتعاطيه المخدرات، دائمًا ما يواجهه بالكلام السيء كلما رآه تحت سخريات الفتية الآخرين لكنه يتجنبهم في أكثر الأوقات

إلَّا ذلك اليوم الكبير الذي تعارك فيه "لؤي" بشدة مع "رامز"و ثلاث فتية آخرين من أصدقائه المنحرفين عصر يوم الأربعاء بالتحديد لما عدنا من الثانوية أنا و"لؤي "نتحدث عن مشاريعنا المستقبيلة وأضحكته كثيرًا بنكتة قديمة عند دخولنا شارعنا وجدنا "رامز"متكئًا على الحائط ببغاء كبير، وأصدقاؤه ملتفون حوله والسيجارة في يده، وبعد خروج دخانها من فمه قال:

أيها اليتيم هل تركت الدراسة واحترفت مغازلة الفتيات من بنات حومتنا؟



"لؤي" احمر وجهه من الغيظ وأكملنا سيرنا وعند تجاوزنا لهم قذفه بسيجارته وقال: يا بن "فاطمة" الفتيات لا يحتجن أمثالك، بل يملكهم الأقوياء أمثالي.. وأنتِ يا قليلة الأخلاق.. ألا تخجلين من محادثة هذا السافل أمام الناس علنا؟

وأطلق هؤلاء الحمقى! ضحكاتهم الدنيئة..

هنا.. تجمد "لؤي" في مكانه ورأيت بركان غضب مرسوم في وجهه وارتعشت يداه، كانت رغبة كبيرة في تحطيمهم تسري في عروقه، ثم انطلق بسرعة البرق وركض نحوهم.

"أيها.. الأوغاد.."

ثم لطم الأول بلكمة أهوته أرضًا.. وأمسك بيده اليسرى القاسية قميص" رامز "من عنقه بإحكام..

و يده اليمني توجه لكمات صاروخية نحو وجه "رامز" البشع..

و سرعان ما تشبث به الشابان الآخران.. يحاولان بكل ما أوتيا من قوة تسليك "رامز" من قبضته، موجهين إليه اللكمات والركلات نحو بطنه وظهره..

لكن بدون جدوى لا تزال قبضته الحديدية تكاد تكسر عنقه .. وأنفه يسري بالدماء حتى أسفل قميصه..



بقيت أحدق إلى هول ما حدث بعينين خائفتين حتى أبصرت أحدهم قد استل سكينًا من خلفه، وغرزها في ظهر" لؤي" من الأسفل بقوة.

حينها أطلق " لؤي" صرخة دوية وأفلت "رامز" وأمسك مكان الطعنة.. و بدأ يتعوج من قوة الألم..

صعقت وكاد قلبي يتوقف! ولم أحرك ساكنًا! والدموع تنهال مني! وبدأت أرتجف كأن صعقة كهربائية عالية أصابتني!

ركله "رامز"بكل قوة على بطنه؛ فتساقط مترنحًا.. مثل ورقة شجرة أسقطتها الرياح.. وبنظرات من الحقد والشر:

أيها الوغد من تظن نفسك؟سوف أقتلك اليوم؟

و انهالوا عليه بالركلات على سائر جسمه بدون رحمة..

لم أتملك نفسي وانطلقت مسرعة نحوهم، لم أحتمل ذلك وأردت انتزاع أرواحهم وهممت بدفعهم بيديَّ بقوة.

كفى..كفى!

أنتم كلكم تترجلون على شخص واحد؟..ألا تخجلون من أنفسكم؟

جثوت على ركبتيَّ حاملة "لؤي" بين ذراعي ودماؤه تسري بغزارة..



و دموعي أكثر.. وبدأت أصرخ بقوة! ودماؤه على يدي وحجري.. وأنا مرتعبة وقلبي ينبض بقوة يكاد يقفز إلى الخارج والريق جف في حلقي..

النجدة! النجدة! ..ساعدونا؟

وإذا بنافذة من شارعنا تفتح ونافذة أخرى وبدأ الصراخ والجيران يتجمعون أما "رامز" فقد هرب خائفًا مع رفاقه الأوغاد.

ثم حمله جيراننا في سيارة مسرعين نحو المستشفى وأنا بجانبه، لم أستطع تركه يصارع الألم وحده خائفة جدًّا لأني كنت السبب في مصيبته..

وصلنا إلى مستشفى وقد فقد دماءً كثيرة..

أسعفوا جرحه بسرعة لحسن الحظ لم تخترق الطعنة ظهره إلَّا سنتيمترات قليلة لأنه كان يترتدي سترة جلدية سوداء أبطلت قوة الطعنة، لأودت بحياته!

ارتاح قلبي قليلًا لسلامته بعد اطمئناني على زوال خطورة الإصابة..

كان" لؤي" ممدودًا على سرير الاستعجالات ملفوفًا بضمادات بيضاء على الجزء السفلي من جسمه ووجهه شاحب يرمقني بنظرات متحسرة لما حدث، وأنا بجانبه جالسة على كرسي حديدي.



الحمد لله على سلامتك "لؤي". لو حصل لك مكروه لما سامحت نفسي أبدًا.

لا تقولي هذا.. يبدو أن قدري أن أتشاجر مع "رامز"حتى يقتل أحدنا الآخر ..ليس لك أنت أي ذنب؛ فأنا لم أكره أحدًا في حياتي مثله.. أنا خائف على أمي لو سمعت بالخبر ماذا سيحصل لها؟

إنتابني إحساس بالذنب وكرهت رامز الفتى البشع وتمنيت في نفسي أن يموت شر ميتة ونرتاح جميعا منه!

أنا مثلك قلقة على خالتي "فاطمة"

وفجأة..سمعنا صوتًا قويًّا يسأل الممرضة في الرواق..

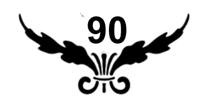
إذا بها الخالة "الفاطمة" التي أبصرتها تدخل بسرعة، والخوف يتملكها إلى غرفة الاستعجالات التي نتواجد بها..

ماذا فعلوا لك يا بني؟

ألم أقل لك مرارًا وتكرارًا أن تتجنب هؤلاء الشبان.. لقد أخبروني أنهم طعنوك بسكين؟ هل هذا صحيح؟

لا تخافي يا أمي، إنه مجرد جرح بسيط!

ثم رمقتني أنا بنظرات استثنائية وغريبة كأنها شكت أني سبب هذا العراك



متى تتعلم الهروب من الشر يا ولدي؟

لقد حذرتك أكثر من مرة ولم تسمعني؟

سوف تقتل نفسك وتقتلني معك؟

ثم دمعت عينا "لؤي" وأمسك يد أمه..

أنا أعدك يا أمي أنه آخر شجار ولن أخلف وعدي..

وأرجوك سامحيني!

دخل الطبيب فهو يعرف الخالة " فاطمة" التي تعمل في هذا المستشفى..

السلام عليكم!

وعليك السلام يا دكتور! كيف حال ابني الآن؟!

إنه على ما يرام الآن.

إنها إصابة غير خطيرة ولكنه فقد دماءً كثيرة ويحتاج إلى الراحة الدائمة والأكل الجيد فقط وإن شاء الله سيتعافى بسرعة!

شكرًا يا دكتور فهذا ابني الوحيد.

وأنت ابتعد عن المشاكل ولا تعرض نفسك للخطر واهتم بدراستك ووالدتك فقط.. ولا تحملها أعباءً أخرى..



ثم خرج الطبيب..

كان كلامه مع" لؤي"قاسيًا قليلًا ..فقد تجهم وجهه والتزم الصمت.

فالطبيب لا يعلم أني أنا السبب وأن لؤي فتى طيب ومتخلق لكن الظروف دائمًا عكسه.

بعد ذلك ساعدت خالتي "فاطمة" في العودة إلى منزلها في إعانة "لؤي" على المشي.

بعد وضعه في سريره في غرفته أمرتني أن أعود إلى بيتي لأن والديَّ سيقلقان على تأخري ..كأنها أرادت تصريفي في الوقت الراهن.

ليلتها لم أنم وفكرت كثيرًا في " لؤي" و بدأت ذاكرتي تسترجع كل لقطة مضت من عصر اليوم، أحزن تارة وأفرح تارة.

أحزن لأني سبب إصابته وخوف أمه الشديد ونظراتها التي تغيرت من ناحيتي هذا اليوم، وأفرح حقًّا لأن "لؤي" قاتل اليوم من أجلي أنا وأتمنى من صميم قلبي أن يحبني مثلما أحبّه.

"يا لهذا الفتى"

إني أعشقه.. وأحبه حبًّا جمًّا!

يا ترى هل يذكرني الآن أم لا؟



ماذا لو كان يحب فتاة أخرى؟

لايمكن!

لا يمكن!

لؤي لي أنا وحدي..

أظن أنه خجول مني فقط لذلك لم يعترف بحبه لي؟

كل ما فعله من أجلي يدل على حبّه لي..

آآه يا إلهي ساعدني.. أسئلة كثيرة داخل راسي ..وقلبي غارق في حب لؤي..

متى يأتي اليوم الذي يخبرني فيه؟

"لؤي"

استعدت عافيتي والحمد لله ومازالت ظروف البلاد غير مستقرة أخبار سوداء على الجرائد عناوين تخنق القلب،... قتلى، وتفجيرات في أعالي الجبال في ولايات الساحل،.... تهديدات بشتى الأنواع... لكن الحياة هي الحياة والناس تباشر أعمالها ومصالحها في أمل عودة الاستقرار الكامل والأمن للبلاد...

مضت أيامي من ذات الشهر الأول في سنتي الأخيرة في أحسن أحوالها وها نحن على مقربة من استقبال شهر أكتوبر حيث أقضي معظم أوقاتي في غرفتي وعلى طاولتي الصغيرة المتحركة أجهز نفسي بكل عزم لخوض امتحان شهادة البكالوريا القادم، عسى أن يوفقني الله وأحقق حلمي.

في يوم الأحد من آخر أسبوع لي في الثانوية وخلال الراحة بعد ساعتي الفيزياء المرهقتين كنت واقفًا بجانب شجرة وأمامي فناء الثانوية المزدحم بالطلاب ومع ارتفاع الأصوات أراقب بصمت.

"شيء غريب حدث!"

فقد تقدمت نحوي فتاة قصيرة القامة ومحجبة وبيدها ورقة مطوية كانت خجولة وعرفت بعدها أنها صديقة "مليكة"

-صباح الخير يا "لؤي"..



إنها تعرف حتى اسمى ..

فرددت لها:صباح الخير.. كيف أساعدك؟

ترددت قليلًا ثم التفتت بسرعة مشيحة ببصرها إلى" مليكة "التي كانت خلفها تسترق إلينا النظر من بعيد، ابتسمت ثم قالت: هذه رسالة من "مليكة" لك ..هل يمكن أن تقبلها؟ فهي تخصك!

استغربت كثيرًا لماذا لم تأتني بها هي؟ وأرسلتها مع صديقتها؟ شككت أن الرسالة بها أمر صعب عليها قوله.

أمسكت الورقة المطوية ثم انصرفت هي مسرعة.. انتابني الفضول فتحتها.. وقرأت:

لؤي.. لا تستغرب كلامي هذا يا من هواك قلبي..

كتبت لك من شدة حبي.. ونسجت صورتك داخل قلبي بحروف ذهبية..

أحبك من كل قلبي.. وروحي تنادي باسمك.. لا أدري إن كنت أنت كذلك تحبني!

لكن ما أعلمه في أطياف كياني ..أن حبك أصبح يسري في عروقي..

مع تحياتي لك.."مليكة"



لم تؤثر فيَّ كلمات "مليكة" كثيرًا طويت الرسالة ووضعتها في جيبي وانصرفت إلى قسمي.. ما هذا الهراء؟ ليس لدي وقت للحب! فأمامي شهادة صعبة! وحلم ينتظرني..

عند لقائي بها سوف أقنعها أن تزيح هذه الأفكار من عقلها فلا الوقت مناسب! وكذلك هي مجرد صديقة لي فقط..

بعد يومين بينما كنت أستمع لحصتي المفضلة في المذياع حول أغاني راي جزائري جديدة وأخبار الفنانين عصر ذلك اليوم... حتى سمعت المصيبة الرايوية الواقعة تخترق مسمعي بذهول.

مصيبة القرن وخسارة نجم الراي الجزائري المشهور! خسارة ملك الأغنية الجزائرية، ملك الراي "الشاب حسني"

خبر جاء مفجعًا ومروعًا لكل عشاقه عبر جميع أقطاب الوطن.. لم أصدق ما سمعته أبدًا، فأنا من عشاقه كمثل باقي الشباب والفتيات، كبارًا وصغارًا.. هرولت مسرعًا إلى الخارج، لأرى فتيات تصحن وتندبن على الطرق وأخريات تبكين بحرقة وتصرخن من أعالي الشرفات والنافذات ورجالًا وشبابًا مصدومين ومجتمعين في كل الزوايا..

اهتزت كل الجزائر وولاياتها إثر هذا الوقع المريب حيث اتجهت مسرعًا إلى مقهى الحومة، وجدته مكتظًّا بأهوال من الغاشي، كلهم



يحدقون بالدموع والبكاء في شاشة التلفاز يستمعون إلى خبر وفاته وصورة حية عن مقتله مغدورا برصاصة مدمرة للفن والمعجبين وأردته قتيلا..

رأينا الأسطورة غارقًا في دمائه بشارع في مدينته وهران.

وكما قيل أنه أغتيل من طرف الجماعات المسلحة كغيره من فناني ومشاهير جزائريين آخرين.. تاركًا لنا أجمل أغانيه التي كبرنا عليها وعشقناها.."طال غيابك يا غزالي في الغربة" و"البيضا مونامور" و"بغيت نخطيها" و"ما قدرت ننساك" و"اللي بيني وبينها" و"ما تبكيش هذا مكتوبي" و"الشيرة لي نبغيها" و"لاباس عمري لاباس" وأغاني أخرى عاطفية كثيرة..

رحل الشاب حسني، ملك الأغنية العاطفية للأبد الذي أسعدنا وأطربنا سنوات بحبه وموسيقاه الرقيقة والحساسة، تاركًا حزنًا جسيمًا من بعده أثر فينا بقوة وتاركًا حرقة وألمًا في قلوبنا جميعًا..

الله يرحمك، حسني شقرون.. عدت للبيت متهاوي الأوصال وحزينًا جدًّا وأفكر ما بعد كل هذا الألم والأخبار المريعة في وطني الغالي..

حتى والدتي لم تعد بعد..

"طرق الباب"



فنهضت متجهًا نحوه ..

لا بد أنّها والدتي ..ولكنها تملك المفتاح! ولا تطرق الباب في العادة..

من يكون يا ترى؟!

وعند فتح الباب تفاجأت بمليكة..

مساء النور..

أهلا بك مليكة.. وهنا عرفت أنها فرصة متاحة لأشرح لها أني لست جاهزًا لذلك الهراء الذي كتبته في تلك الورقة..

أصلًا.. أنا لا أحبها..

أمي ليست موجودة يا مليكة ولا يمكنك الدخول؟ أنت تفهمينني بالتأكيد..

و قالت بحزن: هل سمعت خبر اليوم؟

قلت لها شاحبًا: نعم، إنها خسارة عظيمة لنا وللوطن وللفن برحيله.. أرجوكِ أقفلي هذا الموضوع؛ فأنا مستاء كثيرًا!

نعم يا "لؤي"

ثم قالت مدعية المغادرة: سأعود لها فيما بعد لأن أمي من أرسلتني إليها..لكن انتظريني دقيقة هنا سأرجع..وهممت منطلقًا إلى جيب



سروالي المدرسي المعلق في نافذة غرفتي وأخرجت تلك الرسالة منه وعدت إليها.. وهي تنظر إليَّ تارة وإلى الأرض أسفل رجليها تارة أخرى..قلت بثبات: اسمعيني جيِّدًا يا" مليكة "لقد تسرعت كثيرًا في كلامك هذا وأنا أمامي دراسة ومسؤولية،ولا أفكر في الحب من فضلك لا تحرجيني مرة أخرى أنت طالبة نجيبة فاهتمي بدراستك أحسن، فأنت مازلتِ صغيرة على هذا الكلام..

خجلت وزمت شفتيها ولم تستطع حتى الإبصار في وجهي.. كأنّها لم تتوقع منّي هذا الكلام..خطفت رسالتها بسرعة من يدي وانطلقت..أوصدت الباب وعدت إلى غرفتي بمزاجٍ سيئٍ للغاية.. وانتابني شعور سيء.. لم أفهمه جيِّدًا، عقلي ما زال متعلقًا بتعابير وجهها الخجولة، كأنها أحست بإهانة شديدة!

فأنا لا أحب المواقف المحرجة، فضلًا أني أحسست بالذنب تجاهها.

لكن هكذا أحسن..

عادت والدتي متعبة من المستشفى حاملة في يدها قفّة صغيرة فيها بعض الخضر والخبز.

-مرحبًا أمي.. وحضنتها مبتسمًا.. وقبلت يدها..

-مرحبًا عزيزي" لؤي "متى عدت من الثانوية؟



اليوم درست صباحًا فقط يا أمي وتناولت غدائي مع صديق لي من الثانوية، في مطعم الفول والأكلات السريعة عند العم يوسف..المشهور في سوقنا..فهي تعرفه جيِّدًا كانت هي أول من عرفني به.

كنت أنا وهي نأكل عنده منذ صغري عندما كانت تعمل أمي بالسوق ..قالت بشيء من التعب: أجل أما أنا سأرتاح قليلًا ثم سأعد عشاءنا.

ماذا تريد أن أطهو لك يا عزيزي؟

راقني سؤال أمي فهي دائمًا تهتم حتى لأكلي في معظم الأوقات، قلت لها مسرعًا أريد أن تحضري لنا بعض المحاجب اللذيذة من يديك المباركتين..

فضحكت أمي؛ فهي تعلم كم أعشق محاجبها..

بعد فترة زمنية أغلقت التلفاز وبدأت بمراجعة بعض دروس الرياضيات في غرفتي وأتفقد أحوال أمي وأحوال المحاجب بشوق كبير؛ فأنا أشعر بجوع شديد..

أرى أمي تقص البصل فوق مائدة المطبخ وهي جالسة والدموع تنهمر من عينيها، ورائحة الشحم غشت الأجواء منبعثة من طاجين



الحديد، كم هي رائعة هبة الأم إنها أجمل عطايا الرب تعالى.. اللهم أحفظ لي أمي، فأنا لم أملك سواها.

اجتمعت أنا ووالدتي نأكل المحاجب ونتحدث عن زيارتنا لجدتي يوم الجمعة لتفقدها هي وخالتي "نرجس" التي تسكن معها، فهي لم تتزوج بعد.

نعم..

هذه هي المائدة العائلية القسنطينية، يملؤها الحب والفرح، والبساطة عنوان يعبق أجواء شوارعنا التي تحكي روائح مطابخها، حكايات وحكايات..

مرت الأيام والشهور وأنا على حالي المعتاد مع الدراسة المكثفة والجهد الكبير حتى ساعات متأخرة من الليل.. ومساعدة أمي في البيت والشغل في السوق أحيانًا.. اجتزت امتحان البكالوريا بكل ثقة وحزم وأمل في تحقيق حلمي ومساعدة أمي ووطني..

الجو حار والشمس تكاد تحرقنا ..

ها هي النتيجة قد خرجت، وازدحام كبير من طلاب وطالبات الثالثة الثانوي، أمام لائحة النتائج المعلقة بجانب الباب الرئيسي للمؤسسة التربوية، يتفقدون نتائجهم بلهفة وخوف شديدين.



دموع حزينة تدمي القلب لبعض الطلاب الذي لم يفلحوا في النجاح، وطلاب آخرون يواسونهم بحب ويدعمون معناوياتهم، هذه هي أخلاق أولاد مدينتي الغالية.

صراخ وسعادة كبيرة وضحكات متفائلة في زوايا أخرى من طلاب حققوا النجاح يتفاءلون بمستقبل مشرق..

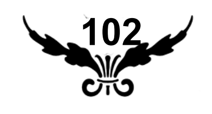
نعم..

هذه هي سنة الحياة..

حصلت على درجة جيِّد جدًّا والفرحة تكاد تخترق قلبي، عائد بسرعة قصوى حتى أنني لا أرى أمامي إلَّا طريق منزلنا مرسوم أمامي في خط مستقيم..

لأزف الفرحة لأمي التي تعبت كثيرًا وطويلا من أجلي هي الآن تنتظرني بشوق أحر من الجمر، وصلت إلى الباب وأنهلت عليه بالطرق بقوة، فأنا أكاد أطير من الفرحة، لم أحس بنفسي وأنا أقفز إلى حضن أمي التي انتفضت عند فتح الباب وانعكست فرحتي في مرآة وجهها التي عرفت منها نجاحي وهي مبتسمة تقول لي هل نجحت يا لؤي؟

"نعم.. نعم يا أمي الغالية"



وبدرجة جيد جدًّا ..قبلت جبين أمي ويدها..هذا كله بفضل دعواتك لي يا أمي الحبيبة..زغردت بقوة ومن أعماق قلبها وقالت بسخاء: الحمد لله يا بني على نجاحك فقد تعبت كثيرًا..و نلت فرحة تعبك.

"الله يفرح قلبك يا وليدي"..

وأطلقت والدتي زغاريد ساخنة من أعماق قلبها مرة أخرى دون انقطاع، بعثت في نفسي الفرحة والابتهاج، وهمّت بعدها نساء جيراننا يباركن نجاحي.. ويزغردن، تخيلت نفسي كأني غدوت عريسًا يضعون له الحنة في ليلة عرسه..لا أستطيع وصف شعوري ونظرات أمّي الذهبية التي ترمقني بسعادة وسط جاراتنا وهنّ يهنئنني بنجاحي، فقد أسعدتها كثيرًا وكنت عند حسن ظنها بي..

و عند خروجي إلى الشّارع فتيان ورجال من الحومة قائلين من بعيد وقريب

"مبارك لك الباك يا لؤي!"

الفرحة تغمرني وأنا أرد عليهم بكل ود:

الله يبارك فيكم!



12/ يوليو/ 1995

إنها الساعة 21:00مساءً

كنت جالسًا مع خالي "عبد الرحمن" الذي يصغر أمي بثلاث سنوات، هو من أهل الريف الكرماء.

صاحب مزرعة صغيرة وزوجته الخالة "لطيفة" التي تعد العشاء مع أمي وبناتها "هدى" و"صوفيا". يقطنون بالريف وزياراتهم للمدينة معدودة..بعد ذلك اجتمعنا في صالوننا الصغير نشرب الشّاي ونتحدث بعدما تناولنا العشاء، كسكسي بلحم الخروف والخضر.

قال لي خالي:

أخبرني يا بن أختي ماذا قرّرت أن تدرس بعد نجاحك في البكالوريا؟

قلت بعزم وثقة: لقد قررت الالتحاق بالأكاديمية العسكرية يا خالي إذا نجحت في الاختبار المخصص.

أعجب خالي باختيّاري ودعمني بموافقته التامة.

قال بعدما أومأ برأسه راضيًا:

-نعم فالجامعات متعبة ومشوارها طويل وأنت أصبحت الآن رجل البيت الذي يعتمد عليك ولتعين أمك.



تدخلت أمي بعصبية من لم يعجبها خياري، نظرًا لخوفها من أزمة الإرهاب التي لا تزال عالقة في جبال بلادنا.. وتلك الأقوال الكثيرة عن المجازر التي يرتكبوها في حق أفراد الأمن.. فبدى لي أنها مصممة من نظرات عينيها قائلة:

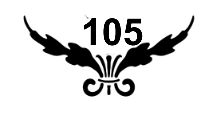
لا يا "لؤي .."

-يجب أن تدرس بالكلية وتختار مجالًا علميًّا وتتخصص به، فأنا غير موافقة على قرارك هذا..

حزنت.. لأن أمّي عارضت أكبر أحلامي ولم تترك لي المجال في تحقيقه وخدمة وطني وبلادي، ومساعدتها هي كذلك فوقفت بيني وبين هدفي حائلة.. مكثت عائلة خالي عندنا حتّى عصر يوم الغد وهمّوا عائدين إلى مزرعتهم لقد وصلت أيام اختبارات القبول في الأكاديمية العسكرية ويجب عليَّ إقناع أمي بأقصى سرعة، فأنا أدرك أنّها تحبني وسوف تتراجع عن قرارها، وتتركني أنطلق إلى حلمي الذي سهرت عليه سنوات طويلة.كانت متكئة على سريرها وأظن أنها تفكر في أمور كثيرة لا أعلم ما هي... جلست بجانبها.. ونظرت إليها راجيًا رضاهاعلى اختياري.

قلت لها بلطف: في ماذا تفكرين يا أمي؟

نظرت إليَّ بحرقة واعتدلت بجسمها ثم قالت:



-أفكر في ابني الذي سوف يتركني هو كذلك ذاهبًا إلى طريق الموت!

ثم أمسكت يدها وقبلتها بحنان على رأسها متوددًا طالبًا رضاها، قلت بشيء من الألم: لا تقولي هذا يا أمي!

وحّدي الله، فلا أحد منا يموت ناقص عمر، الموت قضاء وقدر!

وأنت سيّدة العارفين وتعلمين جيِّدًا كم سهرت وتعبت لأجل حلمي هذا، وكم تعبتِ أنتِ أيضًا من أجلي، أرجوك يا أمي لا تحرميني منه! ولا تحرميني من مساعدتك.

شعرت أمي بالأسى حيالي لكن قلبها حنون عليَّ حد الجنون وأدركت قناعتي وحبي لوطني واعتمادي على نفسي، كما شعرت أنا بالحزن، لأنني سوف أتركها.اعتقدت أنها طريق صعبة عليَّ وليست ببشرى خير.أبصرت في عينيَّ انعكاس حبي الكبير لأن أكون بطلًا من أبطال هذه البلاد العزيزة، بعد جهد مرير وكلام كثير..وافقت بصعوبة.. من شدة فرحتي حضنتها بقوة وطلبت رضاها عني، فهي أغلى إنسانة في حياتي..

جاء اليوم الموعود..

ها أنا منطلق في الحافلة المسافرة إلى مدينة شرشال بولاية تيبازة تاركًا ورائي مدينتي المحبوبة قسنطينة، وشارعي ومنطقتي السويقة،



تاركًا أمي حزينة والدموع في عينيها، تودّعني بنظرات قطعت قلبي إربًا، تمنيت لو أنّي أعود إليها لأضمها ولا أفارقها أبدًا.

كان عدد المشاركين لا بأس به وكلي أمل بالنجاح في الاختبار،بعد مرورنا على طبيب الأكاديمية الذي تفقّد حالتنا الصحية أتى دوري وقد رأى ذلك الجرح أسفل ظهري الذي سببه لي عراك عديم الشرف "رامز" حيث بدأ يتحسسه جيِّدًا

أما أنا خفت كثيرًا لو تكون هذه الإصابة حائلًا ببني وبين هدفي

تكلم الطبيب: ما سبب هذه الاصابة؟

فأجبته وأنا مضطرب قليلًا: إنه حادث صغير تعرضت له في الشارع إثر سقوطي على عمود حديدي حاد.. أنا عادة لا أحبّ الكذب.. لكنني كنت مجبرا! نظر الطبيب في عيني مباشرة محرّكًا رأسه، كأنه لم يستسغ كذبتي، لحسن حظي لم تكن الإصابة ظاهرة بعمق لكانت سبب في عدم قبولي.

انتقلنا مباشرة إلى الطّبيب النفسي الذي تفقد سلامة عقولنا بأسئلة قليلة وفلسفية.

بعد ذلك انتقلنا إلى أقسام دراسية تابعة للأكاديمية، لنجري اختبارات في المواد العلمية واللغات..



ولم يبقَ سوى الاختبار الأخير.

توجهنا إلى ساحة رياضية كبيرة تابعة للمؤسسة، أرعبتنا قليلًا لكبرها وقمة تجهيزها،لما تمتلكه من أنظمة رياضة وقتالية متعددة،تمثل اختبارنا المبدئي في التّأكد من اللياقة البدنية لدى الأفراد، في الجري والقفز الطويل والقفز على الحواجز.

الحمد لله نجحت فيها كلها وكنت من ضمن المشاركين الناجحين ،وبعد تسريح الراسبين كلهم.. قام بعض العسكريين بتنظيمنا نحن المشاركين النّاجحين على شكل صفوف وانتظرنا تقريبًا نصف ساعة!

تقدّم أمامنا ثلاثة عسكريين، يبدو أنهم ضباط كبار ومسؤولين وبدأ ضابط منهم في التكلم معنا..

ضابط طويل القامة ذو شاربين طويلين، بملامح وجه شرسة ساد السكون الأرجاء واقفين تحت أشعة الشمس الحارقة مصطفين ومنظمين والعرق يتصبب منا، نسمع كلماته العميقة:

أيها المشاركون لقد تقدمتم لمؤسستنا رغبة في التكوين والتأهيل ولتصبحوا ضباطا في جيشنا الوطني وهذا ليس بالأمر السهل؟

نحن هنا لنُكَوِّنَ مقاتلين وأبطالًا من الدرجة المحترفة ليكونوا مفخرة الوطن وعماد قوته..نكونكم أنتم ضباط المستقبل وأبطال الغد. وللاعتماد عليكم في المهمات الصعبة والشرسة.



كان صوته مرتفعًا جدًّا واقفا تحت مظلّته ونظراته القاسية المبصرة نحونا والمحفزة في نفس الوقت تكاد تخترقنا ..لذا يجب عليكم تجهيز أنفسكم جيِّدًا والتحلي بروح الانضباط والصرامة وخاصة الأخلاق.. مع زملائكم ورؤسائكم والمشرفين على تدريبكم.

أنتم اليوم هنا من أجل خدمة وطنكم وشعبكم،و الاعتماد على أنفسكم واكتساب المهارات والتكوين، ولذلك ومن يوم الغد ستبدأ فترة التدريب الصّعبة وسيتم تكوينكم قتاليًّا وعلميًّا وفكريًّا بدرجات عالية على مدار أربع سنوات، للتخرج ونيل شهادة ليسانس ضابط،وبدء مهامكم العسكرية بمختلف أنواعها.

لم يزدني كلامه إلَّا تحفيزًا وطاقة رهيبة في المضي قدمًا إلى الأمام دون رجعة.

فأنا أحب التحديات، ولا شيء سوف يقف عائقًا أمامي وأمام هدفي وحبي لوطني.

كان يومًا شاقًّا حقًّا وقد تعبت كثيرًا فيه،و بعد تقسيمنا إلى فصائل من قبل العسكريين المشرفين على تدريبنا، تناولنا وجبة العشاء، تحت إشراف المسؤولين علينا،ثم توجهنا إلى غرف النوم تحت إرهاق كبير...

****



إنّه اليوم الخامس والعشرون من التدريب القاسي حيث مدّت الشمس ألسنتها الذهبية في يوم حارق، زحف تحت أسلاك شائكة وتحت النيران وانبطاح وقفز من سلالم الموت، تدريب دقيق على الطلقات النارية بشتى أنواع السلاح.

جري في المرتفعات والمنخفضات، حركات قتالية متنوعة ومتعددة وخطرة بعض الأحيان، كنا نتمنى عبور الدقائق بسرعة، بدلنا العسكرية غارقة في العرق والتراب نشيدنا دوي خارج من الأعماق:

"وطني وطني.. غالي الثمن.. روحي نفسي.. مالي بدني.. وأنا الحامي لك في المحن.. لتظل حرًّا طوال الزمن.."

كان التدريب يصل حتى ساعات متأخرة من الليل الدّامس، وبالكاد نريح أجسادنا المرهقة والمتعبة بضع سويعات حتى يأتي أثير الرنين الذي ينبؤ بخيوط فجر جديد كسائر الأيام الفائتة.

نهوضنا الصباحي على الساعة الرابعة؛ لنبدأ التدريب والفطور تحت مسؤولنا الرقيب أول: "دحمان" مدرب شرس، قصير القامة وذو بنية قوية، عيناه تلتهبان بحب الوطن ورؤيته غير راضٍ على ما قدّمناه من جهد تبثّ في أنفسنا الرعب.

أما صوته يصرخ في وجوهنا بقوة يشحننا بطاقة رهيبة ومهما واجهتك صعوبة وعثرة قاسية أمامه، فليس لديك مجال للخوف أو



التعبير عن الألم أمامه، بالرغم من ما عانيناه تحت يد هذا العسكري في فترة التدريب والتعسكر الأولية، إلّا أن له الفضل الكامل في كل ماتعلمناه وأصبحنا في قمة الشجاعة والانضباط والصرامة.

مرت أيام التدريب الأولية وبدأنا بمباشرة دروسنا القتالية والعلمية والفكرية تحت إشراف ضباط مختصين في مجالات عديدة.

كل ليلة تمر علي إلّا وهممت في التفكير في أمي وأحوالها من دوني وانساب إلى قلبي شوقها الكبير.

لقد اشتقت لها كثيرًا!

ماذا تفعل الآن يا ترى؟

كيف هي أحوالها؟

هل تبكي في غرفتها كلما تذكرتني؟..أكيد!

أنا أعلم جيّدًا أنّها تفكر بي كثيرًا وتنتظر قدومي أو خبرآ مني بفارغ الصبر اشتقت لها كثيرًا، وتنهال دموعي لاشعوريّا كلّما تذكرت حنانها وتوديعها لي آخر مرة.

فرحت كثيرًا يوم أخبرونا بكتابة رسائل إلى أهالينا ليقوموا بإيصالها إليهم في اليوم التالي، كانت الكلمات تتزاحم عليَّ، ولو كان الوقت ملكي لكتبت لها كتابًا أروي لها كلّ ماحدث معي، وأخبرها عن مدى شوقي وحنيني..



وكتبت رسالتي:

بعد التحية والسلام..

والدتي الغالية كيف أحوالك؟ لقد اشتقت لك كثيرًا..

اشتقت إلى ابتساماتك وضحكاتك، اشتقت إلى حديثك وحضنك الدافي، سامحيني يا أمي الحبيبة وإن قسوت عليك وتركتك حزينة ترقبين رجوعي، لطالما حلمت بالتفوق والنجاح لأخفف آلامك وأمسح الدمع من عينيك فاعذريني، لأني تركتك وحيدة ليس باليد حيلة، فقد شاء قدر الله أن أكون بعيدًا عنك، لكن قلبي لا يردد إلَّا اسمك، وصورتك لا تغادر عقلي.. أعلم جيِّدًا أنك تحبينني وتتمنين لي الخير والفلاح، أنا بخير لا تقلقي عليَّ؛ فابنك رجل في كل الظروف وتربيتك الأصيلة، فأنت من بث داخلي روح الأخلاق والقيم.

اهتمي بنفسك جيِّدًا ولا تنسي دعواتك لي..

أحبك يا أمي.

مع تحياتي.. ابنك لؤي..



"مليكة"

7/جانفي/ 1996

الأمطار تتساقط بغزارة وأنا بسوق العصر البعض هموا مسرعين إلى بيوتهم والبعض الآخر يختبئ تحت الجدران الملساء يراقبون روعة هطول المطر ،و الباعة منهمكون في تغطية سلعهم خوفًا من التلف وآخرون يدخلونها إلى المحلات.

اشتريت بعض الخضر بصل وطماطم وبازِلَّاء وكيلو من لحم الدجاج وكذلك بعض التوابل المنعشة..

إنها ليست لأمي،بل متطلبات الخالة" فاطمة"، فبعد مغادرة "لؤي" إلى الأكاديمية العسكرية، أزورها دائمًا دون انقطاع، أراعي احتياجاتها وأساعدها في أعمال المنزل.. فحالتها الصحية تدهورت قليلًا بعد مغادرة" لؤي"؛ فهي لم تعتد على بعده حتى ليوم واحد وهو الآن غائب عنا قرابة ستة أشهر.

أثّر غيابه كثيرًا فيها، وبكت بحرقة كلّما تكلمت عنه وقصّت عليَّ حبها الكبير له، تخبرني دائمًا أنه نور عينيها، وأغلى شخص في حياتها بل هو سبب خفقان قلبها.

نمت الليلة الماضية في غرفة" لؤي" وذلك بعد أخذ الإذن من أمّي بالطّبع.. بعدما عانيت التفكير المتواصل على سريره ووسادته



الطرية، أشم رائحته الطيبة في غطائه، فغيابه لم يؤثر في خالتي "فاطمة" فقط أنا كذلك اشتقت كثيرًا له واشتقت إلى كل لحظة قضيتها معه، وأحزن كثيرًا كلما تذكرت رسالته إلى خالتي"فاطمة"، التي لم يأتني أنا فيها حتى بكلمة اشتياق أو تحية.

وحزنت لأجل خالتي" فاطمة "بعد قراءة الرسالة لها ،فالدموع كانت تنهال على خديها مثل الشلال وحضنت هذه المرأة الطيبة التي لا تملك حظًّا في الحياة بتاتًا، فأولًا فقدت زوجها وعزيزها وعانت كثيرًا بعد فراقه ولم تتزوج من أجل ابنها وضحت ليعيش معززًا ومكرمًا، ثم أتى دور فراق ابنها عليها كالصاعقة.

وطبطبت عليها ثم أغدقت عليها بكلمات طيبة تواسيها وأخبرتها أني أنا كذلك ابنتها وأني أحبها كثيرًا، مع أن قلبي يعذبني لأن "لؤي" لا يحبني قدر حبي له أو حتى أقل، وحاولت مرارًا نسيانه لكني لم أقوى على ذلك.

ولا أعلم ماهو سبب حبي الكبير له؟

عندما عدت من الثانوية عشية ذلك اليوم، فكرت بتفقد أحوال خالتي" فاطمة" مثل العادة فوجدتها في المطبخ مستاءة ونبرتها متهشة، جلست بجانبها أكلمها حتى توالت طرقات على الباب سريعة.



ذهبت وفتحت..

وصدمت وقتها لما رأيت!

لنرى من كان على الباب؟

"إنه لؤي "

تغير شكله قليلًا بدا لي أنه ازداد طولًا وحجمًا، وتغيرت تسريحة شعره، فأنا متعودة على رؤية شعره الأملس والطويل دائمًا، وقف يرمقني بنظرات مبتسمة ولهوفة وحقيبته على الأرض بجانب رجله.

تلعثمت قليلًا ثم قلت والفرحة الكبيرة بادية على وجهي:

"أهلًا لؤي الحمد لله على سلامتك!"

قال:

"الله يسلمك يا "مليكة"

و لا أدري بنفسي حتى انطلقت مثل البرق مسرعة نحو المطبخ لأفرح الخالة" فاطمة" قائلة بشوق وشغف وحتى دون أن أترك لها المجال لتسألني من بالباب:

خالة فاطمة.. خالة فاطمة.. إنه لؤي.. لقد عاد..



و ما إن جاء ذكر اسم "لؤي" على لساني حتى ألقت بحبة البطاطا والسكين فى وعاء الماء الذي أمامها بسرعة جبارة، وبعدما مسحت بعض بقايا المياه على أطراف "القندورة" الزرقاء التي تلبسها، نهضت من مكانها مثل فرس جبلية جف حلقها وأبصرت واد المياه من بعيد منطلقة بسرعة نحوي تقول والسعادة ملأت تعابير وجهها:

حقًّا مليكة؟

أين هو لماذا لم يدخل معك؟

وما إن تجاوزتني دون حتى أن تتيح لي فرصة إجابتها حتى رأته أمامها يبتسم وعيناه مغرورقة بالدموع، وهم إليها يحضنها بقوة ويقبل يديها وجبينها وهي تقبل يده وتنظر في وجهه بحرقة قطعت قلبي..

كان مشهدًا يأسر القلوب، لم أعِ نفسي لحظتها والدمع ينساب من عينيَّ وأنا أمسحهما مبتسمة وفرحة لعودة "لؤي" أخيرًا..

"وإلى حد لم أتوقعه"

قالت له خالتي فاطمة وهو واقف بجانبها ويدها ملتفة بخصره ويدها الأخرى تمسح الدمع من عينيها:



هيا لنجلس بالصالون لترتاح قليلًا، فأنت متعب من الطريق يا ولدي، وأمرتني أنا قائلة: حضري لنا القهوة أجلبي معك بعض حبات الكاتو أنت تعرفين مكانه.

نفذت طلبها بسرعة، فأنا متشوقة لرؤية" لؤي" والحديث معه لم يطل كلامه معنا وقبل ذهابه إلى غرفته قال لي عبارة بثت في قلبي السرور:

يبدو أنك تهتمين بأمي كثيرًا، ولقد أخبرتني أنك تساعدينها وتقضين لها حاجاتها وأنا ممتن لك كثيرًا يا "مليكة"

فرددت عليه مبتسمة وبنبرة خجولة:

لا شكر على واجب فهي أمي مثلما هي أمك وأنا أحبها كثيرًا.

أظن أن ردي الطريف أعجب خالتي فاطمة وألقت علي بابتساماتها السمحة وقالت:

لن تتوقع يا بني ماذا فعلت معي في غيابك، فلولاها ماذا كنت سأفعل؟

اعتنت بي كثيرًا حين مرضت واشتدت عليَّ الحمى، وتساعدني في أعمال البيت وتهتم له حتى في غيابي، إنها فتاة صالحة ونعمة الابنة!



خجلت كثيرًا من اطراء خالتي المغدق علي، واحمر وجهي وارتشفت قهوتي باضطراب تحت نظاراتهما المحدقة تجاهي.

بعد تناولنا لوجبة العشاء في المطبخ مع "لؤي"، وهي بطاطا مقلية وطبق الأرز الذي أعددته أنا بمساعدة خالتي وفرحت لأن "لؤي" أكل منه صحنين ممتلئين مبديًا إعجابه به، كانت السعادة تسود الأجواء تحت حكايات" لؤي"، لنا عن مشواره في الأكاديمية وبعض الطرف مع أصدقائه هناك وفي تمام الساعة الثامنة أمرته خالتي أن يوصلني إلى بيتنا خوفًا علي؛ فالوقت متأخر!

كان يتحدّث معي في الطريق بحنية ونبرة إعجاب لم أعتدها منه من قبل.. أصغيت له بأذني وقلبي..في آن واحد أتأمل كل كلمة وكل حركة.. وكل اطراء منه كنت أسعد إنسانة في تلك الدقائق وتسربت إلى قلبي فراشات النور في أمل أنه بدأ يحبني، وفي مقربة من الوصول إلى ردهة منزلنا حتى سمعنا الأصوات تتعالى!

دقائق وإذا ببابنا ينفتح ويخرج أبي.

كان مقطب الحاجبين وعابس الوجه متورم الأوردة، يبدو أنه كان يتشاجر مع والدتي.

ما إن أبصر "لؤي" بجانبي حتى رسمت ابتسامة على وجهه وسلم عليه بالأحضان فهو يحب"لؤي".. ومن لا يحبه!



فهو شخص جذّاب ومحترم وذو أخلاق عالية، ويدعوه كذلك إلى احتساء القهوة داخل منزلنا.

لكن "لؤي" أبى وبعد حديثه الصغير مع والدي الذي اختصر في تبادل التحيات والاطمئنان على بعضهما، انطلق عائدًا إلى أدراجه.

مرت أربعة أيام على تواجد لؤي معنا..

"مت في الحب وابقَ حيًّا إلى الأبد"

جلال الدين الرومي

21 /مارس/2004

"كيندة"

ها قد عدت من جديد!

أنا أعلم أنكم ستسألونني متى ألتقي "لؤي"؟ وكيف يدخل حياتي ويغيرها؟

و يا ليتني ما التقيته! وليت الذي حصل ما حصل!

نحن الآن في عطلة الربيع أجواء مدينتي بديعة ومشرقة والهواء أشبع بروائح الربيع الزكية،الطيور تغرد والسماء تعكس نقاء سرائر الخلق، كل شيء يجري وفق الطبيعة الحية كما هو حالنا في هذا اليوم الربيعي اللامع.

وفقا لبرامج عائلتي الترفيهية نقوم أحيانًا بنزه إلى سهوب المدينة وجبالها، نستمتع بروعة المناظر الخلابة التي تبهج القلب تحت النسيم العليل والروائح الشذية ولتجديد نشاطنا،ها هو الربيع ينبعث من جديد في حلته الموسمية المعتادة، زارعًا في أنفسنا أطيب الأحلام وأرق الأحاسيس .

و لكم كان هذا ممتعًا!



نشيح بأبصارنا إلى تلك الطيور في عرض السماء التي خلقت لكي تشيع الابتهاج والفرح في قلوب البشر، وتزيد الطبيعة جمالًا نبصرها بغبط وهي حرة طليقة غير مكتثرة لنا..

.. مضت على خطبتي لبدر قرابة الثلاث السنوات أحاديث وملتقيات ومواعيد غرامية روتينية، وتخطيط لمستقبل مجهول!

لم تعد تعنيني كلماته ولم تعد تعنيني نظراته!فطريقي ليس طريقه وحلمي أصبح غير حلمه! إذن ..لقد أيقنت ما الذي بات قلبي يبتغيه!

و صار لابد من التغيير لقد انقضى ذلك العهد الذي كان بيننا وقد ذهب بي توهم المستقبل الناجح إلى عثرته وما يحزنني حقًّا أني واقفة أمامه منكبة وأضطجع في سهوة دنية جرفت إحساسي الحقيقي بالحياة.

و أنا ممددة على سريري، وأشعر بليونة الوسادة تحت خدي وأتحسس دفء الفراش الواسع براحة وسعادة.. قمت مغمضة العينين..ابتسمت، وأنا أستفيق من النوم، أخذت نفسًا عميقًا وأطلقته مع آهة ارتياح وأمل.كم كان النوم مريحًا! وكم كان حلم البارحة نقيًّا! فتحت عيني ببطء، وأنا مبتسمة ومبتهجة الوجه،وقعت أنظاري مباشرةعلى وجه أمي فيروز محدّقة فيّ بابتسامة عريضة.. وهي



تزيح الستائر إلى أشد أصيص البلسمينة وخيوط الشمس الرفيعة تخترق نافذتي وتخترق جفني.. متفائلة بيوم مشرق وجميل..

-هيا يا عزيزتي قومي! لقد نمتِ كثيرًا..فطورك موجود على الطاولة في المطبخ..

نهضت متجهة نحو المطبخ بعد غسل وجهي وأسناني، فقد كنت جائعة جدًّا!

وجدت فطائر والدتي المغمسة بالعسل والحليب الساخن وشرائح الجبن الشهية.. بدأت بأكلي.

كانت العمة حفصة تجلس على كرسي بجواري، وتنظر إلي وتترشف كوب القهوة بابتهاج.

سألتني كيف أحوالي مع بدر؟ فهي لم ترنا منذ مدة نخرج سويًّا، أو نتكلم كثيرًا هو لم يقصر معي قط ويهتم لأمري ويسعى وراء رضائي دائمًا وأنا التي أصبحت أتحاشى مواعيده أحيانًا وأشعر بسكون كبير في قلبي تجاهه وأحس أني أظلمه كثيرًا معي.

و قد اعتراني القلق المفاجئ وزالت الابتسامة والسعادة من وجهي، وقلت:

-إنها على أحسن حال



هزت عمتي حفصة رأسها وزادت ابتسامتها وقالت:

- أتمنى أن تكوني سعيدة وتكوني أسرة رائعة مع بدر، فهو شاب محترم وذكي ويعتمد عليه.

ثم انخرطت في إكمال فطوري راضية بكلام العمة حفصة... نهضت عن مقعدي ونظفت طاولة المطبخ بعد إكمال فطوري حتى سمعنا رنين جرس الباب، فبقية أفراد العائلة غير موجودين أبي في مكتبه كعادته وبدر ونجوى ذهبا لزيارة عمتي "وداد" أقبلت ناحية الباب وفتحت وإذا بهما بدر ونجوى يدخلان بعد إلقاء التحية علي ويتجادلان تحت ضحكات سريرة

تلك الليلة تودد لي "بدر" بعشاء رومانسي في المطعم الذي يحبه بغية اقتراح موضوع مهم للغاية بالرغم من أني كنت متعبة وأحسست بخمول لكنّني وافقت... ليتني لم أوافق على الخروج معه فقد سدّ نفسيتي من أول قضمة...

-عرض بتعجيل الزواج

لم أستطع تحمل فكرة زواجي في هذا الصيف؟

لقد قلت لكم أن بدر غامض جدًّا وبدا أنانيًّا جدًّا في طرح قراره عليَّ وبقوله أنه الحل الأنسب! لم أقدر على تمالك نفسي وبركان من غضب يعتريني.



أخبرته أنني أريد مغادرة المكان وطلبت منه أن نؤجل حديثنا في هذا الموضوع حتى نعود إلى المنزل، لكنّه أبى.. غادرته مسرعة بعدما اشتد غيظي وتركته هناك منزعجًا من تصرفّي صعدت سيارة أبي وانطلقت بها بسرعة وأنا أفكّر بأن "بدر" سوف يطرح الأمر على خالي وزوجته وأنا لا أستطيع معارضتهما وأنه سيفرض عليَّ زواجه كما فرض عليَّ من قبل خطوبته..

ضغطت على مزود السرعة بقوة وكان الطريق أمامي طويلا بعض الشيء وشبه خال من السيارات ينتهي بإشارة توقف تليها طريق أفقية للدوران يمينًا أو شمالًا.

كان كل شيء يتلاشى أمامي مع غروب الشمس وخيوطها الأخيرة التّي تسللت من زجاج سيارتي وانعكس احمرارها على واجهات المباني فحجبت الرّؤية عنّي قليلًا.

عقلي مشتت بين "بدر" واستعجال الزواج وكلّيتي وحلمي، وحمام من بركان الغضب يسري في عروقي.

وعندما بادرت بإنزال حاجبة الشمس من أعلى الزجاج الأمامي للسيارة وتهيأت للدوران شمالًا دون إعارة أي اهتمام لإشارة التوقف التي تجاوزتها، ظهرت أمامي سيارة بيضاء تشق طريقي بسرعة عاديةوبحركة سريعة ولا إرادية.



ضغطت على الفرامل بكل قوة ،فصاحت إطارات السيارة التي أفزعت قليلًا من المارين على الرصيف وبعد التفات سائقها برأسه نحوي وقد فتح عينيه عاجزا عن فعل شيء.

اصطدمت بها محدثة خبطة قوية كادت أن توقف قلبي من الخوف، هلع النّاس وتوقّفوا لمراقبتنا، جُرّت سيارته بخبطتي مترًا على الأقل والزجاج المتحطم يتناثر هنا وهناك..

وتعالت أصوات منبّهات السّيارات، مع سكون السيارتين رفعت رأسي بعد ارتطامه بمقود السيارة، وقد تلاشت قواي وتهاوت أوصالي وبالكاد استطعت رفع يدي لأضعها على فمي لشدة خوفي من رؤية سائقها الذي تكوّر في مكانه من فرط الألم.

و ملتفتًا برأسه نحوي وعايناه الكبيرتين تبصرانني بعجب لحسن حظّي كنت أربط حزام الأمان الذي أضعف من خطورة إصابتي التي اقتصرت على جرح صغير على مستوى جبيني.

أنا لم أستطع أن أصدق هول ما اقترفت يداي وخفت!.. خفت بشدة و لم أصدق أن غضبي الزائد آل بي إلى خبط سيارة، وكدت أتسبب في مقتل صاحبها..

"لم أكن أعلم لحظتها أنها خبطة ستغير حياتي مائة وثمانون درجة"



خلعت حزامي بسرعة وارتباك شديد في آنٍ واحدٍ وفتحت باب سيارتي واندفعت بكل ما أوتيت من قوة لعلي ألحق بإنقاذه وقد هم رجلين من المارين نحوه بسرعة قبل وصولي أنا إليه محاولين إخراجه بعدما اعوج باب سيارته إلى الداخل مما أحال فتحه بقوة الذراعين وكان لابد من كسر قفل الباب الذي انسد بقوة، زاد هلعي وتشنجت حركاتي واقفة أراقبهم، خائفة من مصير حياة هذا الرجل! وخائفة أيضًا على مستقبلي الذي أصبح على شفا حفرة!

حتى هز ذلك السائق يده بصعوبة كبيرة وتقاسيم وجهه تشيء بألم حاد، ورفع قفل الباب الذي بجانبه فتحه أحد المارة الذي كان يناديه مع طرقات قوية على زجاج الباب برفع القفل لإخراجه، ثم سحبه بلطف إلى الخارج،وما زاد خوفي ساعتها هو عتاب أحد المنقذين الذي رمقني بنظرات عصبية وشريرة:

-من أعطاك رخصة السياقة؟ يجب إخبار الشرطة، لتتصرف معك ويجب أن يمنعوا أمثالك من السياقة! ما ذنب هذا الرجل المسكين؟ الذي حطمت سيارته دون رحمة!

ما إن جاء ذكر كلمة شرطة على لسانه، حتى تحجر حلقي وجف ولم أستطع النطق ببنت شفة، وزادت دقات قلبي بسرعة مهولة والعرق يتصبب مني بغزارة، مرتبكة وحائرة في أمري،بعد سحبه تعاون على حمله ثلاثة رجال والدماء تتهاطل من رجله اليسرى وذراعه



الأيسر، وبنطلونه الأزرق الفاتح أصبحر أحمر اللون من الجهة اليسرى، ثمّ وضعوه في سيارة أخرى لأحد الرجال الطيبين الذي بادر بنقلنا لإسعافه بسرعة. بدا ستينيًّا وكان بشوش الوجه وسائر شعره أبيض اللون، خفّف عن قلبي قليلًا بعد ركوبنا معه أنا والسائق الجريح ورجل آخر، بعبارات متفائلة للتخفيف عني.. ركبت بجانب ذلك الشاب الذي صدمته في الخلف، استغرقنا تقريبًا اثني عشر دقيقة لوصولنا إلى المستشفى الكبير بالمدينة فهو لا يبعد كثيرًا عن تلك الطريق، لكنها مرت علي كأنها شهور أراقب ذلك الشاب بجانبي وهو يتعصر ويتلوى أمامي من فرط الألم القاسي،و يضغط بخلفية رأسه على مقعد السيارة وهو يحاول كتمان صرخة الألم قاطعًا طريقها في حلقه.

استجمعت بعض قوايا المنهارة وقلت بنبرة مستضعفة بعدما قاطعتني دموعي من شدة خوفي وبشهقة حادة:

-أرجوك تحمل قليلًا لم يبق إلَّا القليل

وأنا أدعو الله في نفسي بتودد خاشع أن نصل بسرعة لإسعافه قبل فوات الأوان، وما حيرني أكثر أنه لم ينطق أبدًا بكلمة واحدة وأوجاعه تزيد دقيقة بعد دقيقة، ثم أدار وجهه إلى الجهة الأخرى تحت إغماءات متقطعة.



تحيرت وقلبي يتقطع ودموعي منهالة على خدي،أخيرًا صوت مكابح السيارة لقد وصلنا.. فتحت أبواب السيارة، نزلنا مسرعين، حمله الرجلين بوضعه وسطهما وكل منهما يحيط عنقه بذراع من ذراعيه موضوعة حول عنقيهما، وبالكاد كان قادرًا على رمي خطوة واحدة.

وما إن دخلنا باب الاستعجالات حتى نظر إلينا أحد الممرضين المتواجدين بالرواق الذي انطلق بسرعة خاطفة كالبرق، ليحضر السرير المتحرك الخاص بالإسعافات السريعة،بعد تعاونهم على وضعه فوق السرير المتحرك واندفعوا بهمة يجرونه بسرعة إلى غرفة الإسعافات السريعة وأنا أرمقه بنظرات الحسرة والخوف بعدما طلبوا منا الانتظار هنا في الرواق فقط .

جلست على مقعد الرواق أندب حظي البائس وأبكي دون توقف وأعصر بأصابعي على وسط راحتا يداي ثم آوى إلى جانبي ذلك الكهل الستيني البشوش يطبطب على أعلى ظهري قائلًا:

-لا تقلقي إن شاء الله خير وأظن أنها إصابة ليست بليغة إلى حد كبير..

و بالكاد استطعت الرد عليه بصوت متقطع ومرتبك أمسح دموعي بيدي اليسرى:



-أنا لم أقصد ذلك ،لكنني زدت في سرعتي تحت تأثير غضبي، وقد خالفت إشارة المرور دون مبالاة تذكر وأنا السبب في مصيبته ولن أسامح نفسي أبدًا لو حصل له مكروه..

ثم قال لي بكلمات رقيقة قد نفعتني قليلًا ورفعت من ثقتي المنهارة بالكامل:

-هذا الحادث كان مقدّرًا ولا يمكن لقدراتنا أن تعلو على قدر الله ومكتوبه لنا. فهو المسير والمدبر سبحانه، ادعي الله أن يعقب الأمور على خير وبأمل متفائل، أحسن من معاتبة نفسك على أمر قد حصل وأصبح من الماضي فالله يحب عباده التوابين الراجيين رحمته وخلاصهم من الابتلاء.

- ونعم بالله! يا عم

ولم تمض عشر دقائق أخرى من مكوثي على المقعد أنتظر بصبوة وارتعاد حتى رن هاتفي وسط حقيبتي حتى هزني وخطفني بقوة.

وأسرعت لفتح حقيبتي لأعرف من المتصل!و تبين في فكري أنه اتصال من المنزل، فأنا قد تجاوزت وقت دخولي المعتاد ، لقد كانت السابعة والنصف مساءًا حملت هاتفي نظرت بصعوبة بعينيَّ المحرقتين بكثرة الدمع..إنه أبي سالم..يا إلهي ماذا سأقول له؟ سيفجع لحادثتي! ضغطت على زر الفتح وبصوت هشيش بادي التغيّر.



-ألو..

- نعم يا أبي؟

-مساء الخير كيف أحوالك؟، وأين أنت لقد أقلقتنا عليك كثيرًا؟

ما إن بدأ في كلامه حتى زادت دموعي غزارة تتلوها الشهقات حتى الكلام صعب عليَّ كثيرًا وقلت له: لقد صدمت شخصًا ما يا أبي! وأنا الآن في المستشفى الكبير معه وهم يسعفونه في الداخل.

حتى رد عليَّ فاجعًا: متى حصل كل هذا؟

لا تخافي إن شاء الله خير! وهل أصيب إصابة بالغة؟

قلت: لا أعرف يا أبي! ولكن حالته مزرية وأظن ذلك.

ثم قال لي: أنا قادم في الحال لا تتحركي من هناك..

بعد إكمال مكالمتي مع أبي أتت ممرضة يبدو عليها أنها من الطاقم الذي كان يسعف ذلك الشاب وقالت لنا: هذا الشخص المصاب لقد فقد كثيرًا من الدماء إثر جرح عميق على مستوى الذراع ويحتاج للدم، وأعلمتنا عن زمرته الدموية عسى أن تجدها في دم أي أحد منا نحن الثلاثة.



ثم نهضت من مجلسي وانطلقت نحوها والرعب يعتمل صدري لأطمئن أكثر على حالته بالرغم من سلبيتي واعتقادي بأن مستقبلي قد انتهى هنا..

"لم أكن أعلم أنها بداية لمستقبل مزهر "

سألتها عن مدى خطورة إصابته؛ فأخبرتني أنه أصيب بكسر على مستوى الرجل وجرح عميق في ذراعه اليسرى، وقد تم إسعافه بشكل جيد صدفة غريبة مع حسن الحظ أن زمرته الدموية تشبه زمرتي بالضبط "-o"

فقلت لها بنبرة مسرعة: أنا يا سيدتي أتبرع له أظن أن زمرتي نفسها المطلوبة ،فقالت:

- تفضلي من هنا، سوف نتأكد أولًا بتحليل صغير لك ثم نباشر عملية نقل الدم.

بعد ذهابي معها ودخول قاعة التمريض وجدت ذلك الشاب ممددًا على السرير الطبي وقد جبروا رجله اليسرى المكسورة وأخاطوا جرحه وهو بالكاد يفتح عينيه، انتابني خوف شديد حياله ومع رائحة المستشفى التي أصابتني بالغثيان، كرهتها كثيرًا، وكذلك لم أعتد مناظر مثل هذه أبدًا في حياتي.

"حائرة وخائفة"



أجلستني الممرضة على السرير الذي بجانبه بعد التأكد من فصيلة دمي ..

ثم قالت :

- لا تخافي! إنها عملية سهلة وبسيطة.

قالت بلطف:

- من فضلك ارفعي كُم فستانك لكي أغرز هذه الإبرة في ذراعك لكي ينتقل الدم في الأنبوب الطبي.

و يجب أن تستلقي على ظهرك أحسن لكي تكون العملية أسرع .

نفذت بالضّبط ما طلبته مني الممرضة وبدأت عملية النقل وأنا أراقب ذلك الشخص الذي يبدو أنه استفاق قليلًا من غيبوبته.

نظر إليَّ بعينين شاحبتين ،و استمر في تحديقه بي حتى تملكني الذعر وسيطر الخوف عليَّ أكثر، لم أعلم ماهو السبب في تلك اللحظة؟

لكن ما أعلمه حقًّا أن تلك النظرات العجيبة اخترقت قلبي بشيء من الفضول والغرابة رفرفت روحي معها، وما هدأني حقًّا وأزال خوفي هو رده المباشر للطبيب الذي أسعفه بعدما أخبره أنه سوف يتصل بالشرطة لتقوم بالتحقيق في الحادث وفتح محضر.



قال :

-لا !من فضلك يا دكتور! لا أريد أي تدخل للشرطة.

-لماذا؟ واجب إخبار الشرطة لتقوم بمباشرة التحقيق فهذا في صالحك لأنك المتضرر الوحيد في الحادث ويجب أن تحفظ الحقوق.

بدون أدنى مبالاة لقول الطبيب رد قائلًا بصوت خافت:

- هذه الفتاة مرعوبة جدًّا ويبدو أنّها لم تقصد ذلك وهي على ما أظن طالبة أو عاملة أو حتى ماكثة في البيت ولديها مستقبل وأنا لا أريد أن أضيّع مستقبلها أو أدخلها في جو التحقيقات والمحاكم، كما أظنّ أنّ لديها عائلة تنتظرها وتخاف عليها، كذلك بالنسبة لي أحمد الله أنّها أتت على خير!

ببساطة أنا مسامح..

نظر إليه الطبيب بدهشة وحيرة وقال:

- كما تحب يا بني، أنت حر في اختيارك وأشكرك على أخلاقك وروحك الطيبة، ولا تخف حالتك هذه ليست بالخطيرة جدّا قليل من الراحة والأكل الجيّد وتناول دوائك، كفيل لعلاجك في أقرب وقت.

لم تمرّ بضع دقائق على كلام ذلك الشاب والطبيب حتى دخل غرفة التمريض أبي "سالم" ومعه أمي وأختي "نجوى" مرتعبين



وخائفين، جلست أمي في كرسيّ قريب من سريري ونجوى جلست بجانبي، أما أبي "سالم" بقي واقفًا.

و بعد أسئلتهم الكثيرة طمأنتهم ألاّ يخافوا، فهذا الشاب قد سامحني وطلب أن لا تتدخل الشرطة في هذا الحادث.

بكل تودد قالت له أمّي: شكرًا لك أيها الرّجل الشّهم لقد أنقذت ابنتي من الشرطة وتحقيقاتها وفضلت المسامحة.

فرد عليها قائلًا بتفاؤل: لا تخافي يا خالتي إن شاء الله خير، وهذا الموضوع بيننا نحن فقط ولا دخل للشرطة فيه، فأنا أعلم جيِّدًا خطورة حضورهم..

ثم اطلعت عليَّ بكل رقة واضعة يديها الناعمتين على خديَّ وقالت لي: خفت عليك كثيرًا يا حبيبتي، والحمد لله على سلامتك!

بعد يوم واحد من الحادث هدأت الأمور، وكان لابدّ أن أزور ذلك الشاب لتفقّد حالته الصحية.

تجهزت جيِّدًا حيث ارتديت فستاني الأسود وحذاء ذو كعبٍ عالٍ قليلًا أحمر اللون أما تسريحة شعري فكانت عادية، بعد أخذ الإذن من أبي "سالم" خرجت من منزلنا متجهة نحو المستشفى الكبير ثم راودتني فكرة!



"أن أشتري بعض الورود الجميلة"

فالورود رمز للمحبة والصفاء وكذلك تبهج القلوب بروائحها الزكية..

و بما أنّي غير خبيرة في مجال الورود ومعانيها وحتى أماكن بيعها فقد اضطررت للإتصال بأختي "نجوى"؛ فهي تحب الورود وخبيرة في هذا ،فأخبرتني بمكان المحل الذي تبتاع منه دائمًا ورودها وقد أعجبتني فكرتها عن ورد النرجس البرّي وهو يعني النخوة والشهامة.

بعد شرائي ورد النرجس وتزيينه في مغلف أحمر اللون انطلقت إلى المستشفى ولكن..

"متوترة كثيرًا ولا أعلم السبب؟"

عند وصولي إلى غرفته طرقت الباب بهدوء وجاء صوته من الداخل:

-تفضل

دخلت..

-السلام عليكم!

فردّ علي بوجه مبتسم ورقيق: وعليك السلام ورحمة الله !



ثم طلب مني بكل لطف الجلوس على الكرسي الذي بجانبه.

جلست..

- كيف حالك اليوم؟

-أنا بخير... شكرًا لك! ما كان عليك أن تتعبي نفسك، فأنا على ما يرام.

قلت بسخاء:

- كيف ذلك أيها الشّاب ؟ فمن واجبي أن أزورك دائمًا وأطمئنّ على حالك، فأنا سبب مصيبتك..

فرد عليَّ بابتسامة: لا تقولي هذا؟

كل هذا مقدّر من الله والحمد لله أنها أتت بأقل الخسائر.

بابتسامة ..

- أعذرني! لأني دائمًا أناديك بالشّاب لأني لم أعرف اسمك إلى الساعة.

ابتسم ونظر تحت طرف عينه ثم نظر إليَّ وقال:

-لؤي

أعجبني اسمه كثيرًا، كما راقتني من قبل أخلاقه وروحه الطيبة



-اسم جميل.. عاشت الأسامي..وأنا اسمي: كيندة

فبادرني بنفس الإعجاب والبسمة..

شعرت بجاذبية نحوه وبدا لي أن أتعرف عليه أكثر فسألته:

-ماذا تفعل في حياتك؟ هل تدرس أم تعمل! فيبدو أني أوقعتك في مشكلة في حياتك بعد هذه الحادثة.

- أنا لا أدرس بل أعمل.. أنا ضابط في الجيش ولا تقلقي فقد اتصلت بقيادتي في العمل وأخبرتهم عن حادثتي وأخذت الإذن بالعودة بعد شفائي..

قلت باستحسان: الحمد لله.. جيد.

-و أنت ماذا تفعلين في حياتك؟

-أنا أدرس بكلية الطب في جامعة قسنطينة..

فرد عليَّ بعدما تحرك بجسمه قليلًا: تبارك الخلاق، أنت فتاة جميلة وحسناء ولديك مستقبل زاهر، حفظك الله وتولاك من كل حسد..

توردت وجنتاي خجلًا لمديحه النقي لي

-وأنت كذلك فتى جميل وطيب وتشرفت بمعرفتك.



رمقني بنظرات نقية ومخترقة بعينيه السوداوين اللامعتين وقال بسرور:

-وأنا كذلك متشرف بك وشكرًا لك!

كانت مقابلة جيدة مع" لؤي" وأكثر شيء ارتاح له قلبي هو أنّه بخير، ولكن ما أحزن قلبي حقًّا هو أمّه التي جاءت هي كذلك لزيارته وبعد تعرفها عليَّ وبالضبط أني سبب إصابته وبلوته هذه انعكفت نظراتها بقسوة بعض الشيء إليَّ ولم تهضمني بتاتًا، وكان لابدّ أن أمضي في سبيلي بعد تلك الدخلة الباهتة.

مضت عدة أسابيع وأنا أزوره من حين إلى آخر للاطمئنان عليه في جو مرح وتبادل للحكايات والتعارف، جو كان بالأمس خوفًا وحزنًا..

بعد شهر أذِن له الطبيب بالخروج وإكمال بقية علاجه في بيته وخارج المستشفى..

في كل زيارة لـ"لؤي" أنجذب إليه بطريقة عجيبة..

طريقة كلامه وحبّه للبلاد وحبّه لأمّه وروحه الطيّبة، كلّها أعمدة لشخصيته الفذة وكذلك احترامه لي.. لا يتكلم كثيرًا، وبالرغم من كوني سبب هذه الفاجعة التي حلت به لكني ويا " للعجب .."سعيدة!

"نعم سعيدة!"



لأنها كانت سببًا لألتقي بهذا الشخص الذي فتنني بكيانه وجوهر أخلاقه.. سعيدة جدًّا..

"عندما كنت أمامك أسير على ترابك شممت رائحة الجبل النقية..

نظراتك التّي هزت كياني ..أدخلتني في دوامة العشق العميق!

بالطبع!

فقدأصبحت جزءًا لا يتجزأ من روحي..

عندما كنت أمامك شعرت بأهوال العطف تناغمني..

ها هو قلبي يدق بقوة.. دقات... ودقات أسمعها وأحسها لكن الصمت مطبق علي!

أعلم أنك تنتظر قول الكثير.. لكن كيف!

فأنا الآن على سطح القمر.. لا أدري!

ليتني أستطيع قول كلام يعكس إحساس قلبي المغدق!"

ها هو لقاؤنا الخامس معًا في غرفة المشفى التي أحببتها هي كذلك بمجرد رؤيتها من بعيد، لكنه يبقى لقاؤنا الأول.. هذا أكيد!

حديثه العذب معي دليل صفائه ونقاء سريرته.. تمنيت لو يتسنى لي وقت أطول وأنا أمامه لأجمع ذكريات أكثر، وأحفظ في مخيلتي صورًا أكثر.. وآخذ جرعات أكبر من حديثه، مثل المدمن الذي يرتوي بجرعات أقوى ليضمئ تعطّشه الدائم!



3/ماي/2000

"لؤي"

بعد جهد عصيب في كليتي الحربية تخرجت منها بتقدير جيد جدًّا واستعرضنا احتفالًا عظيمًا حضره قادة كبار في الدولة..

كانت سعادتي مع أفراد دفعتي كبيرة وجاء وقت توجهنا إلى مراكز عسكرية متفرعة على شتى ولايات الوطن..

ودعنا بعضنا البعض بدموعٍ وفرحة، فقد شملتنا معًا أيامًا صعبة وأياما مضحكة ومطرفة وأحداثا منوعة..

كنا كالإخوة أو أكثر أذكرهم جميعًا، إخوتي وزملاء دفعتي، كامل وفادي وأمين وحسين وعامر وعبد الرزاق.. وآخرين..

مركز خدمتي القادم هو فوج المشاة والأسلحة المدرعة في ولاية وهران..

غدوت أخيرًا ضابطًا برتبة ملازم.. تتعمقني الشهامة والحماس في بداية تنفيذ كل ما درست وتعلمت من مهارات فكرية وقتالية وقيادية..

تم ترحيلي إلى ثكنتي الجديدة واستلمت مهامي الجديدة، من طرف قائدي الجديد العقيد "خالد عطاء الله" تحت ظل تحفيزي وتشجيعي مع ضباط آخرين..

مرت سنتي الأولى بصعوبة كبيرة كوني حديثًا في المهمات القتالية لكني حثثت نفسي على الجهد أكثر وبراعة أكثر.

و تحقيق نتائج أفضل من ذي قبل..

كان السبب حبي لبلادي وأمانها..

مرت سنواتي الموالية بأيام مزهرة وأيام عصيبة؛ وشيئا فشيئا ننسى و نكمل أهازيج الحياة بأنواعها ونأمل بمستقبل أفضل وأرقى، ومع مرور الوقت يزداد الإنسان خبرة ومتانة وأكثر ما يلهمني هو عشقي.. عشقي لحبيبة الدهر كيندة.. كلما تزورني صورتها ومحياها حتى في أصعب الأوقات أحس بالبهجة والانتشاء..

دائمًا في هداة الليل وسكونه أتذكرها، أتذكر كل تصرفاتها ونظراتها، أتذكر كل كلمة حلوة وكل نظرة لوع واشتياق، وكل ابتسامة وداع.. لن أنسى أبدًا تلك اللحظة الخارقة لحظة وقوعي في العشق وحياتي ليست ملكي، لحظة دخول مملكة الحب وأنا طريح الفراش بين الحياة والموت..



أفريل/ 2004

.. بعد تلك الحادثة التي أوشكت أن تودي بحياتي قرر الطبيب الذي كان يتابع حالتي أن أعود إلى بيتي وأكمل بقية علاجي هناك.

بينما أنا في بيتي وفي غرفتي بالتحديد، ورائحة شاي أمي تعم الأرجاء، مسندًا ظهري على وسادة سريري، حتى توالت إلى عقلي أفكار كثيرة، منها عملي الذي غبت عليه لأول مرة بصورة طويلة وأتمنى الشفاء بسرعة للعودة لمزاولته فلدي مهام كثيرة.

كلما تذكرت "كيندة"، استقرت صورتها بعقلي، تلك الفتاة اللطيفة والجميلة، أتذكر كل لحظة وكل نظرة منذ بداية الحادث ومنذ أول نظرة خوف حين صدمتني بسيارتها.

أتذكر كل زيارة لها لي، وفي كل باقة ورد تأتي بها أشم فيها رائحتها هي، أتذكر كل حديث وكل كلمة قالتها لي..

"يبدو أنني أحببتها"

نعم، أحببتها من كل قلبي، بعد ما كادت أن تقتلني، أنعشت قلبي بسحرها وحبها الذي استوطن قلبي من أول نظرة!



لقد أعطيتها عنواني ورقم هاتفي آخر مرة، ومنذ ذلك الحين وأنا أنتظر زيارتها لي بكل شغف، أو حتى اتصال لكي أسمع صوتها العذب والشذي..

بعدها سمعت جرس بابنا، شككت أن "كيندة" هي من أتت لزيارتي، فحاولت النهوض والذهاب لاستقبالها، وعند وصولي إلى باب غرفتي، رأيت أن أمي سبقتني إلى فتحه ولكن..

تفاجأت "بمليكة"..

لقد كانت هي من جاءت، بعدما سلمت على أمي لاحظتني واقفا بباب غرفتي ، فأتت مبتسمة وقالت: مرحبًا أيها البطل ها أنت تتحسن، حمدًا لله على سلامتك..

فقلت لها: شكراً "مليكة"، لا داعي إلى كل هذا التعب، أنا بخير.

فقالت لي: كيف ذلك! أنت خطيبي، يجب أن أطمئن على أحوال زوجي المستقبلي.

ما إن نطقت بكلمة "خطيبي"، حتى انقبض قلبي، كأنها سكين دبت قلبي، وتلاشت أحلامي الوردية مع "كيندة" في لحظة واحدة وتذكرت حب أمي لها ووعدي أنا بالذات لأمي الغالية، التي أفنت عمرها كله في رعايتي والاهتمام بي وحبها الكبير لي الذي عوضني عن كل نقص.

بأن أتزوجها وأرعاها وأكون خير زوج لها.



5/أفريل/2004

و أخيرًا..

أتى اليوم الذي كنت أنتظره بكل شغف وجاءت "كيندة" إلى بيتنا واستقبلتها أمّي بكل ود، صحيح أن أمي لم ترتح لها في المستشفى بعد أن عرفت أنها سبب الحادث، وقابلتها ببعض العدوانية، إلّا أن قلبها طيب جدًّا وهي امرأة مؤمنة بقدر الله وتسامح بسرعة..

طبعًا!

فهي من علمني دائمًا أن أوّل من يبادر بالتسامح هو صاحب الأجر والثواب عند الله -سبحانه وتعالى-

كنت في غرفتي أسمع كلماتها مع أمي، التي أتت بها إلى مكان تواجدي، أي إلى غرفتي، حيث كنت ممددًا على سريري هناك وبجانبي كتاب كنت أطالعه من كثرة الملل.

ألقيت فورًا بذلك الكتاب فوق الطاولة التي بجانبي قبل دخولها مع كل خطوة تخطوها نحو غرفتي أحسست بالسعادة تسري في أحشائي داخلًا وخارجًا، وقلبي كاد يرقص فرحا.

"حتى دخلت"



دخلت بفستان بنفسجي قصير بعض الشيء، وشعرها الحريري مسروب على كتفيها ،حاملة باقة ورد بين يديها كعادتها أثناء زياراتها السابقة، والابتسامة العريضة مرسومة على شفتيها قائلة:

عمت مساءًا "لؤي"

فرددت مردفًا بمثل ابتسامتها: أهلا كيندة،

ثم قالت: كيف هي أحوالك الآن؟ أرى أن وجهك مشرق وصحتك جيدة.

قلت: نعم، الحمد لله!

شكراً على زيارتك "كيندة"، ثم سلمتني الورد الذي أبقيته على صدري دون أن أعي بذلك وأكملت حديثي معها: هل لاقتك أي صعوبة في إيجاد منزلنا، فردت: لا، مع العلم أني لأول مرة أزور شوارع السويقة، إلَّا أني لم أجد صعوبة تذكر، فأنت وصفته لي وصفًا دقيقًا، وأعجبتني هذه الأحياء كثيرًا وتلك الهندسات المعمارية للمنازل وأروقة الشوارع.

فقلت لها: بالطبع هذه هي مدينتنا "قسنطينة"الرائعة بكل ما فيها..

فقالت لي بقليل من المزاح: كنت أظن أني أعرف قسنطينة جيِّدًا، لكن اتضح لي أني لا زلت لا أعرف نصفها جيِّدًا..



ضحكت لكلامها وقلت لها: قسنطينة مدينة كبيرة وعريقة وتحتاج عمرًا كاملًا لتعرفها جيِّدًا.

ثم همت أمي لإحضار القهوة والكاتو، وأكملت حديثي مع "كيندة" أترقب كل ذرة فيها بتمعن، وأتمعن فيها أكثر أثناء ضحكتها الرقيقة، لكن للأسف..

لم تطل مجلسها معي وأخبرتني أنها يجب أن تغادر بسرعة لأن والدها ينتظرها..

أنا لم أعرف حتى الآن إلَّا أشياء قليلة عنها، وأردت من كل قلبي التعرف عليها أكثر وكان لابد من حجة لكي ألتقيها مرة أخرى، كما كنت خائفًا أنها لن تعود إلى هنا بعد معرفتها أنني شفيت تقريبًا وسوف أعود إلى عملي .فشُلَّ تفكيري ولم أجد أي حجة تذكر يمكن أن تفي بالغرض.

فقلت لها دون تفكير: هل ستعودين مرة أخرى لزيارتنا؟

فقالت لي بابتسامة: في أقرب أجل آخر سوف أعود لزيارتك فرحت كثيرًا لقولها وقلت لها: رافقتك السلامة..

غادرت بسرعة حتى أنها لم تشرب قهوتها وودعت كذلك أمي ورحلت.



بعد مغادرة "كيندة" البيت، كنت سعيدًا جدًّا لزيارتها لي، أرتشف قهوتي وأطير بمخيلتي معها وأقول لنفسي: هل من الممكن أن تحبّني مثلما أحبها؟ أو أنها تزورني فقط بدافع الشفقة والاطمئنان على حالي فقط ؛لأني لم أتسبب لها بمشاكل قانونية؟ أسئلة كثيرة تجوب عقلي!

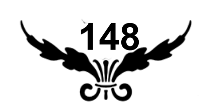
المهم الآن.. أنني سعيد ومبتهج، وتستعمرني إحساسات لا مثيل لها منذ مجيئها ورؤيتها، لم أعش لحظات في حياتي مثل هذه، هل هذا هو الحب؟

لو كنت أعلم أن الحب جميل إلى هذه الدرجة، لبحثت عن هذه الفتاة في كل مكان حتى أجدها.ولكن المصيبة الكبرى هي "مليكة" ماذا سأفعل في أمرها؟أنا لا أحبها، وهي بمثابة أخت وصديقة لي فقط، وقد قبلت طلب أمي بأن أتزوجها لرضايتها فقط، وكذلك لم أكن أعرف أننّي سأغرم إلى هذه لدرجة بفتاة في وقت ما.. و ها قد حصل!

ماذا أفعل الآن مع "مليكة" التي أعلم كم تحبّني، وخبر مثل هذا سوف يؤثر عليها كثيرًا، ولا سيّما أمي التي تحبها ولا تقدر على بعدها، فهي تربية يديها وبمثابة ابنة لها !

ماذا أفعل، ماذا أفعل؟

هل أوافق على حالي هذا وأرضى بمليكة وطلب أمي التي لم ترفض لي طلبًا في حياتها وأشتري تعاستي بيدي!



أم أرفض بكل قوة وأختار طريقي الجديدة التي لا أعلم فيها حتى إذا كانت" كيندة" تبادلني نفس الشعور وأسبب مشاكل كبيرة بعد سعادة العائلتين بهذا الخبر؟

يا إلهي سوف أجن! ساعدني، فأنا لا أقوى على حزن أمي وتدمير حياة مليكة، ولا أقوى كذلك على بعد كيندة والعيش بدونها.

"كيندة"

بعد رحلة ممتعة في عشقه وتناغم روحي وسط روحه أدركت أنني عشت سنواتي الأخيرة مثل امرأة تزوجت وعاشت سن الأربعين أو أكثر ولها خمس أولاد وفي صميم قلبها عانس ،فالعنوسة لم تكن يوما محصورة في عدم الزوّاج انّما في عدم اختيار ما نريد و نحب فتؤول حياتنا إلى الفتور و الملل.. كان قلبي يشمل جميع معاني الأسى والهوان.. موقنة أني أريد حبًّا! حبًّا يغسل قلبي من أحزاني ويغمره دفئًا وحنانًا.. يأخذني إلى الأفق البعيد.. حيث ربيع العاشقين.. كان لابد لي من حبّك! كان لابد من قدر محتوم ومتجلٍّ..

التقينا بعدها مرات عدة في منزلهم، في كل لقاء معه أسترق النظرات الطويلة إلى تلك النظرات العتية وإلى شموخ هيأته النقية، خسرت قلبي وروحي في أول نظرة وأول لقاء بيننا، أصبحت أنت كلي الآن، ملك لك أنت وحدك بعدما كنت بالأمس كلي أنا!



أثارني بوسامته الجذابة ورجولته الكاملة، كلما حدثته أشعر بشغف كبير نحوه ولا أريد أن أصمت بتاتًا، معه هو فقط يحلو الحديث ويبعث آفاقًا جديدة لشخص امتلك قلبي، معه صرت أسبح في فلك الأهواء والتحديات وأحلم بمستقبل وردي واعد معه..

دعني أعترف لك بحقيقة جادلت قلبي بها كثيرًا، حقيقة أصبحت هي حقيقتي.. "أحبك"

استيقظت من نوم عميق كعادتي من كل يوم، يوم مشرق وجميل، ما زلت في فراشي أتحسس نعومته بشدة، سعيدة للغاية وابتسامات تغمرني دون شعور أو إرادة، صورة "لؤي" هي أول من ألقيت عليها "صباح الخير" حبيبي، لم تفارقني منذ اللحظة التي استلمتها فيها.

لم أدرك من قبل شعور "نجوى" بالحب، حين كانت تسهر معي، تحكي لي مدى حبها لسعيد، حتى أحببت "لؤي" من كل قلبي، وأيقنت الهوى وأصله .

مجرد تذكر ملامحه فقط يفرحني ويعطيني القوة، ويمنحني القدرة على كل صعب، حبه صار بمثابة الهواء الذي أتنفسه وفتح طريق النور أمامي، وعرفت معنى الحياة بحبه، لأني حقًّا قبل مجيئه لم أكن سوى جسد شبه ميت، إنسانة عملية لا تعبأ إلا للطموح دون مراعاة قلبها وتتجاهل سر الحياة الحقيقي..



تلك هي طقوس الحب، تخطفك في لحظة إلى عالم لم تكن تعرفه من قبل ولا تدرك حتى كيف حدث ذلك!

كنت مجرد نبتة ذابلة تنتظر ساقيها بشغف، في قلبي كلام كثير أريد قوله وأحاسيس دافئة تنعش روحي، لا وصف لها.

اليوم سوف أقابل حبيبي"لؤي"، لأنه عزمني على الغداء، والتفسح معًا.

حدثت "نجوى" بكل صدق عن كل ما جرى بيني وبين"لؤي" بكل صدق وأخبرتها عن أحاسيسي تجاهه وعن قراراتي بشأن "بدر" أخوها وابن خالي، بعد زف خبر انفصالي عليه لخالي وزوجته، كان أصعب قرار في حياتي أبصرت بعده الانكسار والحزن في عينيهما ما أثّر فيَّ بشدة، وأخبرتهما أنّه لا طاقة لي ولا مقدرة بقيت لمواصلة العلاقة وظلمه هو بالذات وظلمي أنا معه بحقي وحق نفسي.

هي أختي التي لم تلدها أمي ورفيقة عمري، تفهّمتني بكل ود وعقلانية وذكّرتني أنها هي من عمّدتني في البداية بالتّحرر والمضي في طريق أختارها أنا، لأن لا شيء مهم أكثر من اختيار الرجل الذي أحبه من صميم قلبي.

ساعة يدي كانت تشير إلى الحادية عشر والنصف ،بعدما تجهزت بأحسن فستان اختارته "نجوى" معي، ووضعت قليلًا من الماكياج بصورة طفيفة، فأنا لا أستعمله كثيرًا .

لكن كان لابد أن أتزيّن قدر المستطاع، فهذا أول لقاء مع" لؤي " خارج منزلهم "كان أول لقاء غرامي معه" ومع مداعبات" نجوى " الطريفة التي زادتني خجلا وتوترآ.بقيت أراقب ساعة معصمي.. رغم أنّ؛ عنوان ذلك المطعم ليس بعيدًا كثيرًا على منزلنا.

عند وصولي إلى باب المطعم، زاد توتري وزاد أكثر عند دخولي وإبصاري "لؤي" وهو جالس في وسطه ينتظرني، حتى أبصرني هو كذلك ورُسمت تلك الابتسامة الجميلة التي أعشقها، كان رومانسيًّا جدًّا معي أكثر من ما كنت أعتقد، بعد إلقائه التحية لي فور وصولي إليه، ورددت أنا بمثلها، نهض واثقًا وسحب الكرسي الذي يقابله داعيا إياي أن أجلس بصورة باريسية، تحت أنظار كل من في المطعم ما زادني خجلًا واحمرارًا.

جلست وكلي أمل، بل وواثقة أن لحظة اعترافه بحبه لي قريبة لا محالة..

اللحظة التي أنتظرها منذ عشقي له.



بدأ بحديثه معي وأنا أراقب هذا المطعم الصغير، كان ذا طاولات دائرية سوداء اللون وتتوسطها إيناءات وورود جميلة، وزواره بعض منهم عشاق والبعض الآخر متزوجون ومعهم أطفال صغار، وطاولات أخرى تضم إما رجلًا وحده، أو فتاة وحدها تشرب قهوتها بحزن.

أعجبني كثيرًا المطعم الذي اختاره" لؤي"، عكس مطاعم قديمة كنت أزورها تفتقد كل معاني الحب والرومانسية.

-هل تأخرت عليك..؟

- أبدًا في موعدك، يبدو أني أنا من أتيت مبكرًا، فقد كنت سعيدًا جدًّا لأنك قبلتِ دعوتي.

- أنا كذلك سعدت لدعوتك لي، كيف هي أحوال والدتك؟

- إنها بألف خير، فمنذ بدأ زيارتك لنا، تعلقت بك كثيرًا وأخبرتني أنه يجب أن ندعوك إلى الغداء في منزلنا في أحد الأيام، لكني سبقتها اليوم ودعوتك أنا للغداء معي..

ضحكت وقلت: إنها سيدة فاضلة، كما أنني أحببتها كثيرًا، وشكرًا لكرمها معي..

- أنت لم تعرفي والدتي جيِّدًا، فهي كريمة جدًّا، مع الأيام سوف تحبينها أكثر، فهي ذات قلب لطيف وقدوتي في كل شيء..



- يبدو أنك تحبها كثيرًا.

- بالطبع يا كيندة، فأنا لم أعرف شخصًا أكثر منها في حياتي، حتى أبي توفي بعد ولادتي بعام واحد فقط، لم أعرفه إلّا في الصور أو بحديث أمي عنه، فقد توفي إثر حادث في المعمل الذي كان يشتغل به، وتركني لوالدتي العزيزة التي أفنت حياتها في رعايتي والاهتمام بشؤوني، لم تبخل عليَّ بشيء وأحبتني كثيرًا، وكافحت ظروفا عصيبة حتى أصبحت رجلًا يعتمد عليه..

- أنا آسفة، لأني ذكرتك بوالدك -رحمة الله عليه-، ولا يجب أن أوصيك بأمك، فأنت كل شيء لها.

قال بنبرة حانية: لا عليك يا كيندة، فهذا قدر الله وأنا إنسان مؤمن به..

بعد تناولنا طعام الغداء، جاء وقت القهوة تحت حديث "لؤي" الرائع عن طبيعة عمله كضابط في فرقة استكشاف عسكرية تابعة لمكافحة الإرهاب، وبعض المواقف المضحكة التي تعرض لها، وكذلك بعض من الصعوبات التي بثت في نفسي خوفًا شديدًا عليه التي كادت أن تقتله.أعجبتني حكمته وطريقة عمله وحبه لوطننا الجزائر، وكم دفعت حبيبتنا من شهداء ودماء لأبطال، سيظل يذكرهم التاريخ ولينعم الناس بالأمن والأمان.



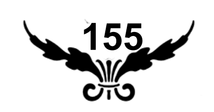
بعد ذلك..

سكت قليلًا وبدأ يحدق في عينيَّ ويترشف قهوته ببطء.. وتسارعت نبضات قلبي وأنفاسي، وضع فنجانه على آخر رشفة توتّر قليلًا ثم قال لي: كيندة لدي كلام آخر يجب أن أقوله لك قبل مغادرتنا وهو مهم جدًّا بالنسبة لي، فاليوم هو يومي الأخير هنا في قسنطينة، وغدًا أغادر إلى عملي.. قلت له محاولة التحكم في رباطة جأشي وثقتي في نفسي: نعم تفضل يا لؤي فأنا كلي آذان صاغية..

فقال: كيندة، قبل بدأ كلامي المهم يجب أن تعلمي أن تلك الفتاة التي وجدتها بمنزلنا "مليكة" والتي تدرس معك في نفس الكلية، كما علمت عند لقائكما في بيتنا آخر مرة، هي خطيبتي التي لم أحبها يومًا، فهي بمثابة أخت لي فقط، وحبّ أمّي الزّائد لها، كونها جارتنا منذ صغري وتقريبًا هي من ربتها وتعتبرها أكثر من ابنتها، أصرّت أن تزوجها لي، وافقت في البداية على خطبتها كأي رجل عادي يقبل بفتاة اختارتها أمّه له، وأنت تعرفين جيِّدًا كم أحب أمي ولم أستطع أن أرفض، حتّى أننّي متأكد كل اليقين أني لم أحبها يومًا.

أحسست حينها بغضب وغيرة كبيرين

- بعيدًا عن حبّك الكبير لأمك هذه حياتك، فكيف قبلت بفتاة لا تحبها؟!



- كان لابدّ أن أقبل يا كيندة..أحسست أني بقبولي، أرضي والدتي وأقدّم خدمة بسيطة لها، خدمة وقبول للأم التي ضحت بحياتها من أجلي، حتى ولو كان ذلك على حساب حياتي، ولأني لم أعرفك يا "كيندة" ولم تكوني في حياتي وقتها، لكن استطعت أن أقنع أمي بأني لا يمكن أن أظلمها معي ولا يمكن أن أتزوجها لأني وبكل بساطة أصبحت"أحب.."

أحب فتاة أخرى من كل قلبي وأتمنى أن تكون هي شريكة حياتي ونصفي الآخر..

ما إن خرجت هذه العبارات من شفتي" لؤي"، حتى تأكدت أنّي الفتاة المقصودة من خلال نظارات عينيه البراقة، حتى زادت دقات قلبي وتوقّف ريقي، ولم أستطع قول أي شيء إلّا:

- ومن هي هذه الفتاة؟

نظر في عينيَّ بثقة كبيرة وابتسم بدفء وأنا لم أستطع مجاراة شجاعته فهبطت بمرآي إلى الطاولة بوجهي الذي أعلم أنه قد تورّد وفضحني لا محالة وفي داخلي أقول: "قلها يا لؤي هيا قلها..هيا.. هيا"

- أنت يا كيندة.

تنفست الصعداء تحت حرارة جسمي ودقات قلبي المتسارعة وحاولت استجماع ما بقي لدي من قوة وقلت في داخلي:



و أخيرًا حان دوري..

- "لؤي" أنا لا أعرف ماذا سأقول! لكن كل ما أعرفه أني أنا كذلك أحبك، أحببتك من أول نظرة وأول لقاء في تلك السيارة المجهولة وأنت تتألم فيها، أحببتك وانتظرت بفارغ الصبر هذه اللحظة، لم أستطع البوح لك بحبي لأني كنت خائفة كثيرًا ألاّ تبادلني نفس الحب فأنا مثلك، أشبهك في كل شيء، لست الوحيد الذي فسخ خطوبته من أجل فتاة أحبّها حديثًا، أنا كذلك! سأفسخ خطوبتي من ابن خالي"بدر" الذي لم أحبه يومًا وكان قبولي به مرضاة لخالي وزوجته فقط اللّذان ربياني، وكل ذرة خير فيها أنا الآن هي من خيرهم وعطفهم.. كما تعلم.

و لكن بعد ما أحببتك، عرفت أن القطار وصلني ويجب أن أشتري تذكرة سعادتي معك وأركب قبل أن يفوتني، وأخبرت خالي وزوجته وتفهّما وضعي، لكنّ" بدر" لم يفهم وصاح في وجهي بقوة، وما زال على أمل أن أكمل معه، عند عودتي سوف أكلّمه وأقنعه بأنها النهاية لا محالة.

لؤي وتعابير وجهه كلها فخر وسعادة وحنان وبابتسامة رقيقة:

- إنه قدر الله أن نلتقي يا كيندة ونحب بعضنا في تلك الظروف وبعدما كان لكلّ منا طريق آخر، شاء الله أن يجمعنا....



بعد خروجنا من المطعم، طلبت من لؤي أن يتمشى معي قليلًا، لأنه سوف يغادر وسوف أشتاق له كثيرًا، كم تمنيت في تلك اللحظة أن يتوقف الوقت وأن لا أتزحزح من جانبه لأي ظرف، أردت من كل قلبي أن أمسك يده وألمسها، بعد بضع خطوات تشجعت وأمسكتها ،و أدخلت أصابعي في مثوى أصابعه، في تلك اللحظة خجل مني وبدأ ينظر هنا وهناك واحمر وجهه..لحظة يبكي لها التاريخ، ثم ضم على يدي بأصابعه الغليظة، كأنه لا يريد مفارقتي بتاتًا ثم ابتسم ونظر إليَّ بدفء..

"أحسست ولأول مرة بالأمان الحقيقي"

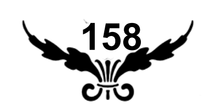
ثم قال لي:

أنا سوف أغادر إلى عملي غدًا ولا أعلم متى سأرجع مرة أخرى يا كيندة، لكن كوني على يقين تام، أنّني أحبك من كل قلبي ولم أنسك في أي لحظة ولن أنساك ما حييت، وسوف أنتظر يوم لقائنا مرة أخرى بكل حرارة وأمل، وسأشتاق لك، واعلمي دائمًا في صميمك أن هناك رجلًا قسنطينيا سوف يفعل أي شيء من أجلك!

فرددت بابتسامة وحب:

-أنا كذلك أحبك من صميم قلبي يا لؤي، وسأشتاق لك كثيرًا وسأنتظرك دائمًا ولكن لا تنسى أن تراسلني..

****



وصلت لحظة المغادرة...

توقفنا نحن الاثنين متقابلين على رصيف قليل المارة، نظر إلي وقال: في أمان الله يا حبيبتي ورعايته! وهم بالمغادرة بعد توديعي بأرق الكلمات وأنا واقفة أبصر خطواته مدّعية انتظار حافلة تقرّبني إلى البيت.. حزنت قليلًا، لكنّ سعادتي أكثر لأني أعشق... ولا أدري ما حصل لي في تلك اللحظة... عدت مسرعة نحوه بجسم وروح أصبحت ملكه هو فقط... توقّف أمامي بوجهه الناعم والجميل يحدّق ببراءة... تقدّمت بدون شعور... ومستوية على أفق عطفي وحبّي الكبير... تقدّمت نحو شفتيه الورديتين الناعمتين ودون مبالاة بالعالم الآخر

قبّلته...

وقف هو مبلمًا وخجلًا، وجهه يكاد ينفجر من شدة الاحمرار أحسست بنشوة خارقة للعادة، تمنيت دوامها للأبد وحضنته بقوة وحزن كأنّه قطعة مني، تمنيت ألّا يغادر ويتركني..

مسح لؤي على رأسي بيديه واطبق على كافيا وبنظرة عشق وحنين قال... أعلم أنك تحبينني كثيرًا وسوف تشتاقين لي... أنا كذلك مثلك... تمنيت من كل قلبي أن أبقى في حضنك إلى آخر نفس لكن مطبّات الحياة كثيرة وطرقها وعرة لا يحقّ للعشاق فيها إلّا الصبر والدعاء انتظريني يا حبيبتي... واعلمي أنّ هناك رجلًا يحبّك أكثر من نفسه...

أبهجني قول لؤي بسعادة قصوى أنستني كل أحزاني وودعته بنظراتي الطويلة..و قلبي المشتاق...



"لؤي"

ليت الوقت توقّف عند ذلك الإحساس والتّدفق!

ليت الوقت.. توقف.. توقف..

حيث رقص قلبي لأول مرة وأصبح ليس ملكي.. أنا لم أعد أنا!

دقيقة أو لحظة أو برهة..بدأ جنوني بك!

أراكِ في كل مكان ..

أبصرك في صديقي الذي يحدثني عن حبيبته..

أبصرك في الساحات الطويلة ووجوه المقاتلين..

أراكِ في الأعالي كلما سرحت كالنجمة المتلئلئة..

أراكِ في وجه النادل وهو يأتي بكوب القهوة المنعش على طاولتي المفضلة..

أرى ملامح محياك العذبة في صاحبة محل الورود، صرت أراك في أي مقصد وأي شخص..

لقد جننت بك!

كيف حدث هذا؟؟ وما السبب بالضبط؟



ليت هناك تفسيرًا يريح قلبي!

لم تكوني أي أنثى! أنثى شهدت لك الليالي الطويلة..

أنثى سحرت قلبي وكياني بكل المعاني..

غدوتي وطني وملاذي..مدينتي وقريتي.. أصبحت غرفتي وورقتي.. غدوت وسادتي وهوائي..

فليعلم وليسمع كل الناس أني على حبك يا كيندة باقِ.

كرهت بعدك وأحببته عند اشتياقك..

ملامحك العذبة لا تغادرني.. كلماتي أضعف ووصفي أتعس.

توهمت أنك ملاك طاهر يحرسني.. وطيف يرمقني.. بنظرات من بدر عينيك.. تنسيني حنيني واشتياقي.

ستبقي يا خليلتي النبراس الذي يضيء دربي..

..عدت أدراجي إلى وجهتي ولاية وهران حيث عملي ومؤسستي العسكرية..

مدينة وهران جوهرة البحر الأبيض المتوسط، تتسم بمعايير فائقة الجمال والسحر؛ فقد مرت هذه المدينة القديمة والعريقة على حضارات عدة وذات معالم سياحيَّة تاريخيَّة فيها، خاصَّةً كنيسة



سانتا كروز.. الكنسية العريقة.. وقصر الباي، ومعبد وهران العظيم، وكاتدرائية وهران، والمسرح الجهوي لوهران.. وما يميزها عن بقية الولايات الجزائرية هو أكبر تجمّع للقلاع والحصون العسكرية القديمة، وغيرها الكثير من المعالم التي تتميّز بها هذه المدينة العريقة.. ويكمن سر ثقافاتها ورقيها في التعايش الديني الرائع، لأنّها من المدن التي شهدت تعايشًا دينيًّا رائعًا ففيها المساجد والكنائس الكثيرة، التي تعبر عن التسامح الديني بين السكان وحرية الأشخاص والديانات.. كما لها مكانةً علميةً وفكرية عظيمة، باحتضانها جامعة وهران، التي يفد إليها الطلبة من شتى أنحاء البلاد، ومن الوطن العربي والخارج، ما أنعش الحركة الثقافية والتعليمية فيها، هي ملهمةً للعديد من الكتاب والأدباء، وفيها مسرح مهم لرواياتهم وأدبهم، وقد أقام فيها العديد من الأدباء من بينهم ابن خلدون..حقًّا إنها جميلة ورائعة وتستحق لقبها المتداول "باريس الثانية".. وتعج بالأضرحة والمقامات للأولياء والصالحين.. أمضيت بها أربع سنوات في ظل شغلي هناك، أجمل أيامي قضيتها فيها بالرغم من هول ما عانيناه في ظل القضاء على الإرهاب، سنوات مرت علينا أحر من الجمر، وخوف دائم، ستظل راسخة في عقولنا وقلوبنا.. الجزائر حينما دخلت هذه المرحلة السوداء في شتى أقطابها أتت على البشر والشجر ولم يسلم منها لا رضيع ولا شيخ ولا امرأة، أعادت الدولة إلى الوراء بعد استقلالها وانطلاقها في الازدهار..



لقد ترسخ في عقلي ما لم يكن في الحسبان.. من بداية عملي في الجيش إلى حد هذه الساعة؛ فقد بدأت تلك الجماعات المسلحة المنسلخة عن أحزاب إسلامية كبيرة، في محاولة لبناء "الدولة الإسلامية" بعد فشلها سياسيًّا.

فقد ركزت على المجتمع من أجل التحريض وبناء قاعدة متميزة تحت الستار السياسي والدعم الخارجي الديني والسياسي، وقد استفادت كثيرًا من عوامل أجنبية وعوامل طبيعية منها: الاستعداد الجيد للتنظيمات المسلحة من حيث التدريب والاستفادة من خبرة المقاتلين في حرب تحرير أفغانستان، وعامل الطبيعة الجبلي في الشمال الذي كان يوفر غطاء وملاذ جيد للمقاتلين مثل المجاهدين إبان ثورة التحرير، كما استفادت من الحالة الاقتصادية المزرية للدولة والتي كانت تمر بحالة إفلاس وكسب تعاطف فئة كبيرة من الشعب بالاستفادة من المادة الدينية ومن الفتاوى غير الدقيقة من خارج الوطن.

ترسخ في عقلي أحداث عشتها بقلب قوي وشجاعة متفانية، فكانت بدايتهم تتمثل باستهداف أفراد الشرطة والمراكز الحكومية وتصفية الأفراد العسكريين وطيارين ودركيين؛ حيث تم الإفتاء بأن كل موظفي الأمن للحكومة كفرة وطغاة.



رفضت حتى كل الدول العربية تقديم مساعدات للجزائر بسبب موقفها من حرب الخليج والصحراء الغربية.

باستثناء العراق الذي كان هو الأخير يمر بحالة حصار؛ لكن هذا لم يمنع أن يقدم مساعدات كبيرة للجزائر تتمثل في أموال وكذلك سوريا الشقيقة فقط.

في الوقت الذي وقفت فيه بعض الدول العربية إلى جانب الجماعات المسلحة، بمدها بالأسلحة وفتح الحدود؛ لتسهيل عملية تهريب الأسلحة لها، حتى أن بعض القادة استقبلوا قادة الجماعات المسلحة.

رأيت أمامي في مهماتي المتخصصة في المطاردة والاقتحام، زملائي الشجعان منهم من مات بطلق ناري فردي أو جماعي، منهم من بترت رجله وهو يصرخ بشدة فرط الألم ونحن نقدم له الإسعافات تحت رؤيا تقشعر لها الأبدًان...

بينما قدمت تركيا وجنوب إفريقيا ودول مثل أوكرانيا وبيلاروسيا عربات مصفحة، ووافقت على أن تتلقى ثمنها في وقت لاحق، كما أن حاجة قادتنا جعلت الجيش يقرر بناء قوات شبه عسكرية تلقب بالدفاع الذاتي -الباتريوت- وهم أشخاص متطوعون يعملون على حماية قراهم من هجمات الجماعات الإرهابية في المناطق النائية؛ لكن

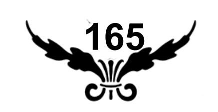


بسبب الأزمة المالية عاشت القرى النائية في خوف ورعب في كل لحظة، عاشت الأزمات بشتى أنواعها مع تهديداتهم المتكررة.

كما تم غدر أفراد عديدين منا بتنفيذ عمليات ضد الجيش وهذا بتفجير العبوات الناسفة، كنا أحيانًا مذهولين وجامدين في أمكنتنا لا نبصر شيئًا سوى الرصاص الذي كان يخترق الشاحنات بسبب عدم توفر عربات مصفحة ومع صعوبة ملاحقة المهاجمين..

كما خفنا كثيرا على أفراد عائلاتنا من القتل والتصفية ضد عائلات أفراد الجيش والشرطة لدفع الشباب الآخرين لعدم الالتحاق بصفوفه، عدد كبير منهم قتل داخل بيته من طرف أخيه الإرهابي.. استخدموا العامل النفسي ،حيث كان في مناسبات كثيرة يسقط مسلحون برصاص إخوتهم من أفراد الجيش مع وجود الكثير من الحالات كانت العائلة الواحدة تحتوي على جندي وإرهابي.. استخدموا الكازمات الجبلية لاختبائهم وتنفيذ اجتماعاتهم السرية الدنيئة.. وهي عبارة عن مغارات تحت الأرض تتخللها الأنفاق.. تموه مداخلها بالأعشاب، مما كان يعرض حياة جنودنا للخطر بسبب عمليات الاقتحام ومحاولة التدخل..

لكن الله مع الصابرين..



من دخول عام (2001) بدأوا في تلقي ضربات موجعة كانت أكثرها دموية مقتل كتيبة كاملة منهم في أول عملية للقوات الخاصة من نخبة أفراد الجيش وقتل في تلك العملية حوالي 300 مسلح من المجموعة المسلحة.. وهجمات عديدة أخرى ناجحة زعزعت نظامهم وأفرادهم.. شهدت هذه الفترة بداية الاستقرار داخل الوطن؛ حيث تم القضاء على ما نسبته 85 بالمائة من المسلحين، كما استأنف جيشنا تطوير نفسه بعد تحسن الاقتصاد الوطني، ورغم هذا لم تنتهي الجماعات المسلحة نهائيًّا؛ فاستمر الجيش بتوجيه ضربات أخرى.

أُلقي القبض على عشرات الآلاف من المسلحين، تم الإفراج عن أعداد كبيرة منهم في إطار السلم الوطني لمن لم يتورطوا في عمليات قتل وقدرت الخسائر المادية 1992-2000 بـ 22.4-اثنين وعشرين فاصل أربعة مليار دولار.

وازدادت بعد ذلك أعمال الذبح والتقتيل بكل تشدد وعصبية، وبدأوا بمظاهر جديدة، ذبح أي شخص يشك بأنه من عناصر الأمن خلال الحواجز المزيفة،حيث كانت تقام هذه الحواجز ليلًا في مناطق بعيدة عن الأمن، وكان المسلحون يرتدون، بزات شبيهة بالبزت العسكرية والشرطة والدرك، كما يقومون بسلب المواطنين تحت شعار "المال أو الموت".والإغارة على المساجد ليلًا، وقتل من فيه سواء رميًا بالرصاص أو ذبحًا؛ إذا تجرأ أي إمام وندد بأعمالهم إلى آخره من



أعمالهم القذرة، والحمد لله امتلكنا اليوم جيشًا قاهرًا وباسلًا في كل الظروف، أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه من معدن لا يصدأ.. جيش مدرب بأقسى العوامل القتالية، ومسلح بأعلى التقنيات والمعدات العسكرية المتنوعة والصواريخ المدمرة.. جيش مستعد للذهاب إلى أي مكان، وكما اختصره البعض "بأن الجيش الجزائري شرب الدم وصار شرها محبا للقتال بعد أن تخلص من عقدة الخوف من الموت" والأمر لا يختلف عن الشعب.. فمازلنا على حالنا في العزم والمواظبة الشديدة؛ للقضاء على المجموعات الإرهابية جمعاء، وتوفير الأمن الكامل للبلاد.. كان يجمعنا حب الوطن وتناشدنا أشواق الأهل والأقارب.. مستعدين للتضحية بحياتنا في أي وقت على أمل انتشار الأمن والأمان.. لقد عانينا كثيرًا من صعوبة المهام الموكلة لنا، وأرهقتنا المطاردات والملاحقات..في بعض الأحيان في غرفتي بعد تعب كبير أستحم وأستلقي محاولًا النسيان والتفكير في مستقبل مشرق..

أفكّر في والدتي وأحوالها وماذا تفعل الآن؟و أحنّ وأشتاق كثيرًا إلى كيندة حبيبتي..و فكرت في أن أكتب لها رسالة أطمئنها على حالي؛ فأنا أعلم أنها مشتاقة لي وتتنتظرني بكل لهفة.

و كتبت..



حبيبتي كيندة السلام عليك.. أرجو أن تكوني بأفضل حال يا لؤلؤتي الغالية.. اشتقت لك كثيرًا وأريد أن أحدثك عن كل ما حدث معي وكل ما يحدث هنا؛ لكن الورقة لا تكفي..

سأختصر كلامي، لا تقلقي علي أنا بحالة جيدة وعملي مباشر، ولازلنا في قضيتنا الكبرى..

كيف هي حال أمي؟ هل تزورينها؟؟ إذا ذهبت إليها طمئنيها على أحوالي وأخبريها أني بخير.. ولقد كتبت لك أبياتًا شعرية من نبع فؤادي هديتي لك يا محبوبتي، وأتمنى أن تعجبك وتعبر لك عن مدى حبي وحنيني:

القصيدة:

سلامًا معشوقتي، يا تُرى ماذا تفعلين؟

حُبك في قلبي نارٌ زادت البعدَ سنين..

كل يومٍ يغدو وخيالكِ زادَ فيَّ الحنين..

حتى قُلت لقلبي ارحمني يرحمكَ ربُّ العالمين!

هواكِ عذابٌ سكن روحي وزاد فيَّ الحنين..

آآه، تبعت قلبي؛ حتى شربت سم عينيك الجميلتين..



عليَّ السلامُ في من أحب يا أغلى البنين..

انتظريني حبيبتي؛ فقدومي آتٍ ولو بعد حين؛

فالغيم لا بد أن ينجلي بشمس الصبح ينحني..

والليل الطويل لا بد أن ينقضي بنور البدر ينطوي..

أختم لك بأشواقي وسلامي يا أعز من روحي..

"أحبك كيندة.."

"ليسطع النور في أعماقك يجب أن

يحترق شيء فيك"

جلال الدين الرمي

"نجوى"

سوف أكمل لكم أنا الآن بالنيابة عن أختي وصديقتي" كيندة ":

بعد دخول" لؤي"حياتها تغيرت بالكامل، لم تعد تلك الفتاة العملية والنكدية التي يصعب مناقشتها، تحسب لكل شيء وطموحها المفرط الذي أثر على شخصيتها وطبعها كثيرًا..

..لن تتصوروا مدى تغيرها أبدًا؛ فقد أصبحت فتاة مرحة محبة للحياة والحب، دائمًا تحكي لي عن مدى عشقها لـ"لؤي" وعن مدى تأثرها بشخصيته القوية ووسامته الجذابة، لاسيما أخلاقه العالية من خلال حديثها عنه أيقنت أنه شخص رائع وسوف يحبها ويعتني بها ويكون لها الزوج المخلص والمحب، كما أخبرتني بسعادة هائلة أنه في إجازته المقبلة سوف يأتي لخطبتها هو ووالدته..

منذ آخر لقاء لهما وذهابه، وهي تنتظره بشوق كبير، تسهر حتى ساعات طويلة من الليل مع رصيد من ذكريات حبيبة وحانية..

في أحد الليالي العاتمة دخلت إلى غرفة "كيندة" وجدتها سارحة بنظراتها ومفكرة على طرف سريرها، تائهة في زورق الهوى، قلت بعد دق الباب بعكفة إصبعي السبابة، وأنا مبتسمة: مساء الخير يا حلوتي..

فانتبهت لدخولي بهزة لا إرادية بجسمها، وابتسمت ببراءة واضحة قالت:

تعالي يا نجوى إلى جانبي، فأنا أريدك في أمر خاص..

رددت بانبهار وحاجبين منعكفين: ماذا هناك!



هيًّا بسرعة أخبريني..

قالت، وهي تدخل يديها في حجرها متمايلة بجسمها: لقد جاءتني رسالة من لؤي وفرحت بها كثيرًا.. وأجمل ما فيها أبياتها الشعرية التي هوستني بجوهر كلماتها ورسالتها الغرامية الدفينة.لا أستطيع وصف مدى سعادتي.. و قد كتبت رسالة له وسوف أبعثها غدًا..

قلت: آآآه.. يا للروعة.. الآن عرفت سبب كل هذه السعادة القصوى..

كاد الفضول أن يقتلني لمعرفة ما جاء في رسالة لؤي، وبعد إلحاح كبير من طرفي، استطعت انتزاعها منها وقراءتها حقًّا، كانت رائعة ومعبرة إلى حد كبير.. و كذلك طلبت من كيندة أن أقرأ ردها وجاء فيه التالي:

حبيبي لؤي..

بعد السلام، أنا بخير وبصحة جيدة، وأحوالي كما تركتني أزاول دراستي الطبية مثل كل يوم..لكني أحن وأشتاق لك كثيرًا، كل يوم يمر في بعدك يزيد عشقي وغرامي، أحلم بك في كل ليلة، وخيالك لا يبرحني حتى ثانية، وأريد أن أطمئنك على أحوال أمي فاطمة، إنها بألف خير، وكنت عندها منذ يومين فقط، وهي امرأة شديدة لا تخف عليها، واهتم بنفسك ولا تقلق على كلتينا.. لا أنس شكرك من كل قلبي، وأعماقي عن قصيدتك الرائعة، لقد نقشت حروفها في أيسر صدري.. أتمنى أن يحميك الله ويرجعك لي سالمًا غانمًا..أحبك..

حبيبتك كيندة..



14/أوت/2004

"كيندة"

بدر ليس بالمنزل، اختفى منذ قرابة يومين، وعلمنا قبل الآن من اتصال هاتفي بمنزلنا أنه في بيت عمته، وقد قرر المكوث عندها فترة زمنية مؤقتة.. كنت أعلم جيِّدًا أنه فر هروبًا لكي لا يضطر إلى مقابلة "لؤي" وعائلته فقد علم أنهم قادمون اليوم لخطبتي.

الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا والجو حارٌّ جدًّا، لم أذق طعم الراحة أبدًا، فقد كنت منهمكة في تنظيف البيت وترتيبه منذ الأمس.. بعدما تجهزت بأحسن حلة، وصففت شعري ورششت أحلى العطور أضحيت تارة أجلس في صالوننا السفلي وتارة أصعد إلى الدور العلوي أتفقد نفسي في المرآة متوترة وسعيدة في آنٍ واحدٍ وأخرج باستمرار ألقي نظرة على ساعة الحائط كل خمس دقائق تقريبًا من شدة التوتر وعدم الصبر قلت:

"لقد تأخروا كثيرًا"

كما أن "نجوى" سعدت لي من كل قلبها، وأخبرتني أن أصبر وأتمالك نفسي قليلًا، أما ما أبغضني هو رؤية الحزن في عيني خالي سالم، وهو ينتظرهم ويدخن سجارته بقلق، أما أمي فيروز: فقد



دخلت غرفتها، ولم تخرج إلَّا بعد رنين جرس الباب انتفضت، واشتدت دقات قلبي وقلت مسرعة لنجوى يبدو أنهم قدموا..

نهضت نجوى من جانبي وخرجت من غرفتي وأطلت من طابقنا العلوي إلى موقع باب منزلنا؛ فلاحظت دخولهم، أتت مسرعة كالبرق تبتسم ابتسامات عريضة قالت:

لقد حضروا يا كيندة ورحب بهم أبي وهمّ معهم إلى صالوننا السفلي الآن حتى أمي التحقت لمقابلتهم.

قلت والسعادة تغمرني وأنفاسي المتوترة بادية الوضوح: ماذا أفعل الآن؟ هل يمكن أن أختلس النظر؟

لا.. لا..

أخاف أن يراني أحدهم، وأقع في موقف محرج للغاية

قالت نجوى: اسمعي سننتظر هنا، حتى ينادوا عليك لتقديم الحلوى والمشروب لهم..

بعد قدوم" لؤي" وأمه وتعرف خالي وزوجته عليهما، انصرفت أمي فيروز لنا تناديني للحضور، ومعي المشروب والحلوى لهم، كما اعترضت بتهجم على عدم مرافقة نجوى لي لكن..



بعد توددي أنا لها بغمزات من نجوى لحضورها، وافقت أمي بصعوبة. وبعد حملي صينية الضيافة نزلت بخطوات متتابعة متوترة وقلبي محلق من فرط الفرح الهائل في قلبي. ونجوى بجانبي تبتسم لي ،تكاد تجعلني أضحك بقوة، أحمل عبء صعوبة الوصول إليهم؛ لكنها مرت مرور الكرام، ووضعت الصينية أمامهم بعدما كاد قلبي يتوقف من شدة الخفقان السريع، جلست أمامهم بجانب نجوى وأنظاري على الأرض، لمحتهم بطرف عيني فقط، لمحت "لؤي"حبيبي بجانب أمه، بأناقة ساحرة ووجهه الجميل وابتسامته المعهودة بخجل وقد توردت خدوده البيضاء حمرة وخجلًا لحظة رؤيته لي، كان يرتدي بذلة سوداء وقميصًا أبيضًا عليه ربطة عنق حمراء اللون. عندما وقعت أنظاري عليه للوهلة الأولى من جلوسي شعرت بأن قلبي سيقفز مني، أردت من كل أعماقي شجاعة كبيرة تقتل خجلي لأمعن النظر فيه والترشق بكل مافيه.

كان يجيب على أسئلة خالي وأمي فيروز بكل ثقة وعزم، ما بث في قلبي الطمأنينة..طمأنني إلى حد أني شعرت أنه يمكن أن يحارب الدنيا والعالم أجمع من أجلي أنا..

" أنا فقط "

بعد حديث خالي "سالم" مع "لؤي" وأمه، تفاهموا عن كل صغيرة وكبيرة تخص ارتباطنا وزواجنا..ما أسعدني كذلك حب خالي سالم لي



بالرغم من كل ما حصل وتوصيته المحثة "للؤي" بالاعتناء بي والمحافظة عليَّ وتوفير كل الحب والأمان لي قائلًا بحزم وجدية: "كيندة" هي ابنة أختي الغالية وأمانتها الثمينة كبرت لدي في حضني وتحت رعايتي واهتمامي هي ابنتي وصغيرتي المدللة..

وليس من السهل علي فراقها لكن هذه هي الحياة وسننها، فليكن في علمك أني أسلمك أغلى ما أملك، ابنتي الحبيبة وأنا اعلم أنك ستكون كفؤًا لها.. هي أحبتك واختارتك من بين كل الرجال وأعرف أنك تحبها وأنا إنسان متفهم وأتمنى من كل قلبي سعادتكما.

كان الاهتمام والعزم جليًّا في وجه" لؤي" نظر إلى خالي بهدوء ورد بشجاعة: أنا أدرك تمامًا محبتك لها وخوفك عليها فهذه مهمة كل والد تعب وربى وأحب اختيار المكان المناسب لابنته والاطمئنان عليها والرجل الذي حمل للمسؤولية.. أنا وبكل فخر يا عمي "أحبها" من أعماق قلبي، فهي وطني وملاذي وستكون بعون الله أم أولادي وسأكون لها الزوج المخلص والمحب وسأعطيها الأمن والأمان وأغدق عليها بالحب والاطمئنان... فلا تخف وأعلم أني سأعتني بها حتى أكثر منك... زرعت الابتسامة العريضة على وجه خالي من شجاعته وحسن رده وأظهر علامات الرضا والارتياح... وتلاشت كل نظرة خوف وسوء ظن من وجه خالي وأمي فيروز، التي أبدت موافقتها بوجه عبوس وغير راض.



رمقني خالي بنظرة ذات معنى بعيد تليها ابتسامته المريحة أدت مفعولها وأشعرتني أنه راضٍ كل الرضا على حسن اختياري... غمرتني نشوة عشق دخيلةٌ وأطلقت زفرة فرحٍ وسرور من أعماق صدري... وانقضت ساعات الزيارة وأحاديث" لؤي" وخالي الطويل فهو كذلك مغروم بحب الوطن وذكرياته المحفورة في أعماقه من زمن مكوثه في الجيش في فترة الخدمة الوطنية وعن بسالة أبناء هذا الوطن الغالي والعزيز، وأحوال الجيش هذه الأيام... بعد مغادرتهم هممت إلى غرفتي مع نجوى نتبادل أطراف الحديث والمزحات الطريفة.. أبدت نجوى بكل جدية حسن اختياري وكم كان" لؤي" مهذبًا وسلسًا في الكلام كيف كان جميل الخلق والمظهر..

"لقد أثر على الجميع من أول لقاء"

لن أنسى أبدًا تلك اللحظات معه في بيتنا وتلك الأحاسيس العتيقة والمغدقة ما حييت..

"لا يسع المرء أن يغير قدره.."

مهاتما غاندي

"المأساة الكبرى"

"كيندة"

..هل تدرك كم أحبك يا لؤي؟

هل تدرك أصلًا مدى حبي لك؟

هل تريد الجواب؟

اسأل عيناي! اسأل حضني وصدري! اسأل شوقي وقبلاتي!

ليت قلبي يتشجع ويفصح عن قعره: ستدرك أنك النفس والنبض..

ابتسامتك بقت سرًّا لقلبي وعقلي .. صوتك هو الأعذب.. إحساسك هو الأنقى.. ضحكاتك هي الأحلى.. لمسة يديك.. روحك وقلبك الأبهى..

لا وصف يقدر عن رائحتك التي شقت قلبي بنقائها وصفاها.. حزن عيناك أحيانًا يستهويني.. اهتمامي القوي بك يجعلني أشعر كأن حياتك مرتبطة بحياتي!

سوف أترك أصابعي تعبر وتكتب لك بحبر من دمي بصدق جوارحي..

..أحبك.. أحبك.. أحبك.. يا لؤي..



و لا أعلم السبب الحقيقي لعشقي الكبير لك..

هل تدرك كم أهواك؟

للحياة بنيتها ومآربها المتنوعة، حين تفرح يحين وقت الحزن ليتطلع فرح جديد وحين تضحك لابد من زمن الدموع لتزرع بسمة جديدة، في صميمنا تكثر الأحلام والأمنيات، لكن يبقى الحبيب واحد والقدر واحد..

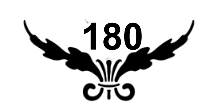
القدر الذي هو أكبر مني ومنك، كلمته فوق الجميع مهما بلغت شدتهم لابد من لمسته المباغتة، أمامه من تسلح بالصبر والحكمة نجا ومن عارض واستنفر لقي حتفه في الدجى..

لم أطلب إلَّا البقاء بجانب حبيبي بكل توسل ورجاء للخالق سبحانه الكريم، حبيبي الذي أودع في كياني سر العشق والهوى، أودع فيَّ سر النشوة والسكرة في الدنا..

حبيبي يا من أحببتك بكل عنوة وتفاخر..

أنا التي استويت بكل هدوء على نار عشق لا أعلم نهايته ولا أين آخر مسالكه؛ فحياتي كانت مفعمة دائمًا بالأحداث القوية

أحداث امتزجت فرحًا ودمعًا، كرًّا ونحرًا، سوءًا وحبًا، صبرًا وحنينًا..



نمت بسلام تلك الليلة تحت أحلام شقية، كنت أظن أنها لن تمر إلَّا شهور عديدة حتى أتزوج بحبيبي"لؤي"، وأكون معه تحت سقف واحد، مع أني أعلم أن عودته تكون من ثلاثة أشهر إلى ثلاثة أشهر وأحيانًا أكثر، المهم أن نكون مع بعض يجمعنا بيت واحد مع أمه، التي صارت بمثابة أم لي أنا أيضًا .

و رغم أنني نمت متأخرة، إلَّا أنني نهضت باكرًا..

كان الجميع لا يزالوا يغطون في نوم عميق، وبعد نصف ساعة نهضت" نجوى" فتوجهنا للمطبخ لإعداد الفطور.

كانت أختي في غاية الكسل والملل، أما أنا فكنت في كامل طاقتي، مفعمة بالحيوية والنشاط.. بعد اجتماعنا أنا وهي حول مائدة الفطور.. نتناول الكعك بالمربى والحليب، التحق بينا "بدر"، مكشرًا بوجه عبوس وحاجبين ملتويين، كان مرتبكًا بعض الشيء، ألقى التحية تحت أنفه، لم تعجبنا أبدًا تلك الدخلة التي جاء بها، ثم حمل كوبًا من القهوة الساخنة وذهب به إلى سفرة الضيوف وجلس هناك وحيدًا، وبعد مدة قصيرة التحق بنا أبي "سالم" وأمي والسيدة "حفصة" التي حضرت لتوها من بيتها المجاور لنا لبداية أشغالها كعادتها.

بعد إكمال الفطور، تجهزنا وانطلقنا نحو الجامعة، كنت متحمسة جدًّا في طريقنا، وأحدث نجوى عن الزيارة التي أنوي القيام بها عشية اليوم.

و قلت لها:

-اليوم بعد إنهاء محاضراتي سوف أزور أم" لؤي" للاطمئنان عليها، فهي وحيدة دائمًا وقد أخذت الإذن من أمي وقد وافقت.

-جيد، وهل تريدين أن أذهب معك؟

فقلت لها متحاشية بنظراتي:

-لا تتعبي نفسك سوف أذهب وحدي.

هزت نجوى رأسها متفهمة ثم قالت: كما تريدين يا عزيزتي لكن انتبهي لنفسك جيِّدًا، فكما أعلم أنها تقطن في أحياء السويقة وهي مكان خطير وتكثر فيه التحرشات والمعاكسات للفتيات، وكذلك السرقة تحت التهديد

قلت بثقة:

لا تخافي يا "نجوى" أنا أعلم جيِّدًا كيف أتعامل مع ذلك النوع من الشبان، كما أني ذهب عدة مرات من قبل لزيارة لؤي أثناء خروجه من المشفى..



لكن!

"تعالي هنا"

ضحكت باستهزاء: كيف تعرفين كل هذه الأمور؟

فردت نجوى عليَّ مبتسمة في ازدراء:

كيف لي أن أعلم؟..هل ذهبت هناك من قبل؟

فقط صديقة لي تسكن هناك كانت تحدثني عن شبان تلك المنطقة الخطرين.. أنا لا أعلم كيف أن لؤي استطاع أن يكون رجلًا متخلقًا ومحافظًا وذو مكانة راقية.. وهو يقطن حذو هذه المنطقة؟

قلت لها مطمئنة:

أنا لا أعرف تلك الأحياء جيِّدًا، لكن أعلم أن سر ذلك يكمن في أمه التي ربته أحسن تربية وحافظت عليه من كل سوء كما كان يخبرني دائمًا هو عن تضحيات أمه له..

بعد وصولي إلى الكلية الطبية، أكملت نجوى طريقها إلى كلية العلوم الإنسانية حيث تدرس..في تمام الساعة الثانية عشر ظهرًا أكملت آخر درس صباحي، ولم يبقى لي سوى درس تجريبي يبدأ على الساعة الواحدة حتى تمام الساعة الثالثة زوالًا، كانت معي صديقتاي "رتاج" و"آسيا" وقررنا الذهاب لتناول طعام الغداء خارج



الحرم الجامعي وقد عزمتنا صديقتي "رتاج" على حسابها، فور مغادرتنا وبالضبط بجانب إحدى الطاولات، أخبرتنا "رتاج" أنها نسيت أوراق بحث عند طالب معنا اسمه "وليد" وأمرتنا أن ننتظرها هنا حتى تلتحق بنا بسرعة.

مكثت أنا وصديقتي "آسيا" ننتظرها، مرت خمسة عشر دقيقة ونحن لا نزال في نفس المكان ننتظر تحت أشعة الشمس التي أحرقتنا، نضحك ببراءة ووضعت "آسيا" كتابًا فوق رأسها تحميه قليلًا من خيوط الشمس الحارقة، وقالت لي بنبرة مضحكة:

أرأيت يا "كيندة" ماذا تفعل بنا "رتاج" البغيضة، تركتنا دون أدنى مراعاة...

قلت لها ضاحكة:

لا تقلقي! لابد أن سبب انشغالها شيء مهم.

على كل سوف تبرر تأخرها وإلا.. سوف!

لم أكمل جملتي الساخرة لآسيا، حتى أشحت بأطراف بصري إلى فرقة من الشرطة مسرعة تتقدم نحونا بأعين كلها شرارات حادة وشريرة..

وقفتُ مذهولة ومذعورة! لهول المنظر.. مشلولةالحركة..



أما" آسيا " شُلَّت حركتها وهي لا تزال جالسة على الطاولة، محمرة الوجه، كأن دمها توقف داخل رأسها، تراقب في سكوت عميق، حاولت الالتفات ورائي لعل قدومهم ليس من أجلنا نحن بل لشخص آخر، لم تكن ورائي سوى شجرات الصفصاف الطويلة..

أخذت ألتفت برأسي يمينا وشمالًا،

"لا أحد سوانا"

"هنا اهتز قلبي بعنف من الصدمة"

حاصرنا أعوان الأمن من كلتا الجهتين وتقدم نحونا شرطي أسمر طويل القامة وذو شاربين، يبدو أنه الضابط!

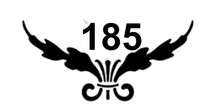
قائلًا بنبرة خشنة وسريعة:

من منكما هي "كيندة مهران"

صعقت بشدة أثناء سماعي لاسمي، وتجمد فيَّ كل ما هو حي يتحرك..

و رددت خائفة بشدة متلعثمة في كلامي والعرق يتصبب داخلي:

أنا.. أنا هي!



فقال لي: ممكن حقيبتك لتفتيشها، لقد جاءنا بلاغ سريع أن لديك قطعة من المخدرات وأنك تتاجرين بها داخل الحرم الجامعي!

اهتز كياني وبدأت دقات قلبي بالخفقان بسرعة، العرق يتصبب داخلي بعنوة والاضطراب عم تصرفاتي..

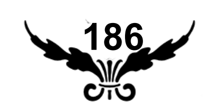
بالرغم أني قلت في نفسي تشجعي يا كيندة ليس هناك شيء، يمكن أن تكون إحدى الفتيات التي تمقتني، تريد إحراجي فقط، من أين لي بالمخدرات؟ أنا لا أعرف حتى شكلها!

وسلمته حقيبتي بسرعة بيدين ترتعشان بقوة، بدأ الطلاب يجتمعون من حولنا بكثرة، فيهم من يهمس للآخر بكلام غير مسموع، وفيهم من ينظر بدهشة، ثم حضرت "رتاج" ووقفت بعيدة عنا تراقب في صمت..

بدأ الضابط يفتش وينزل كل ما في حقيبتي من أدوات دراسية وكتب، وأنا أراقب وأدعو الله في داخلي من كل قلبي أن يحميني، قلبي يكاد يتوقف من الخوف والرعب الذي سكنني..

"لحظات وكانت الفاجعة"

أخرج قطعة حشيشة مغلفة بشريط أبيض شفاف، حجمها مثل علبة تلوين صغيرة، وقال لي بعينين حادتين ومتفاجئتين بعدما تحسسها بلمسة يديه وقربها من أنفه وشمها بنفس عميق:



"يا للهول.. كل هذه مخدرات؟؟

تجمدت أوردتي وشعرت بالخوف الشديد ،التفتُّ إلى جانبي بجهد فرأيتُ آسيا تقف ملتصقة بالطاولة محملقة بي تكاد بنظراتها تثقبُ عيني فيما تعبيرات الذهول طاغية على وجهها المستغرب!

لم أصدق أبدًا ما حدث لي !كان حدثًا أشبه بكابوس مخنق، ما هذا؟!

"صعقت وذهلت! مخدرات في حقيبتي!"

كيف أتت؟

و من دسها لي؟

و أي شخص هذا الذي يريد تدمير حياتي؟

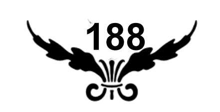
أسئلة كثيرة اعترت عقلي، وسوف أجن من قوة التفكير فيها، بعد تأكد ظابط الشرطة من البلاغ وصحته، جرني اثنين من أفراد الشرطة الآخرين بأمر من ضابطهم، تحت أنظار طلاب كثيرين مبصرين نحوي وأنا أبكي بحرقة، دموعي منهالة على خدودي كالمطر حائرة في أمري هذا حائرة في هذا البلاء الذي هب عليَّ مهب الصواعق..

ركبت سيارة الشرطة من الخلف وانطلقوا بي نحو مركز الشرطة الرئيسي بالولاية، كان شعوري وقتها بالضيق والحيرة سيقتلني، دخلنا المركز وبعد تحقيقات أخرى طويلة أجريتها، نفيت كل التهم المنسوبة إليَّ بكل قوة وأعلى صوت، أدخلوني إلى غرفة المحبوسين التابعة للنساء، حتى يحولوني غدًا إلى وكيل النيابة للتحقيق في القضية..

أمضيت ليلة عصيبة ومقرفة في تلك الغرفة، غارقة في همي وأدعو الله من كل قلبي أن يزيح عني هذا البلاء، وأن يرحمني برحمته الواسعة وينقذني من السجن والضياع...

لم أذق طعم النوم دقيقة واحدة حتى الصباح، شعرت بالغثيان وأجفلت عيناي من فرط التعب وتقيأت عدة مرات وأحسست بدوار كبير..

بعد طول انتظار وتفكير مرير، حلت الساعة الثامنة صباحًا ونادوا عليَّ إلى مكتب الضابط، أتمشى بثقل شديد برفقة شرطي إلى مكتب المسؤول وأطرقت أنظاري في ازدراء إلى المكان وكل ما فيه، مذهولة ومرعوبة حيث وجدت خالي "سالم" وزوجته وأختي "نجوى" و"بدر" يحمل حقيبته في يده داخل المكتب.. لحظة دخولي ورؤيتهم سبقتني دموعي المنهالة بغزارة، لم أتمالك نفسي أبدًا وهممت مهرولة إلى حضن خالي "سالم" ، ارتميت في صدره وحضنته بقوة ودموعي تنزف كالشلالات، قائلة له بصوت حنجرتي المجروحة:



والله والله أنا مظلومة يا أبي، أنا لا أعرف شيئًا عن هذه المخدرات التي وجدوها في حقيبتي..

نظر في عينيَّ بعطف شديد وأمسكني بيديه على كتفيَّ وقال لي بنظرة حسرة وألم: أعلم يا عزيزتي كيندة، لكن كيف حصل هذا؟ ومن له الغاية في دسها لك؟

قلت بقوة ونبرة غضب: لا أعلم، لا أعلم يا أبي، ماذا سأفعل الآن سوف يسجنوني، سوف يسجنوني!

لقد ضاعت حياتي..

بينما كان أفراد عائلتي الآخرين يطبطبون عليَّ ويهدؤون من روعي وخوفي..

تكلمت أمي فيروز ووجهها عابس قالت: هوني على نفسك قليلًا يا كيندة، سوف نجد حلًّا.. ثم قالت بلهجة تحسر لم تعجبني أبدًا، لاسيما في هكذا ظرف عصيب: لقد حذرتك دائمًا يا كيندة من رفقاء السوء، ماذا سيقول الناس عنا الآن، كيف سنواجههم بهذه المصيبة؟

وكيف الحل؟؟ فأنا قاضية وأعلم أن هذا النوع من القضايا صعبة وحكمها طويل.. لقد زعزعت قلبي بكلماتها الجارحة، اهتمت بشكلها أمام الناس ولم تهتم لي، قهرتني ونسيت نفسية ابنتها المنهارة التي ربتها... نسيت أنها سوف تسجن ظلمًا وبهتانًا، استحقرتها لأول



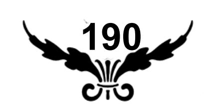
مرة، ونظرت إليها عن كثب بعينين غاضبتين وحادتين..ثم تدخل بدر قائلًا: بالله عليك يا أمي، ليس هكذا؟ أنظري يا كيندة، أنا سأكون محاميك إن شاء الله! وسوف أحاول بكل جهدي أن أخرجك منها بأي شكل..و هذا النوع من القضايا هو صعب قليلًا كما قالت أمي، لكن لدي لمستي وطريقتي وأعدك أني سأساعدك، وأعمل بكل جهدي لحل مشكلتك، فلا تخافي.. بدر محامٍ شاطر جدًّا، لقد بث كلامه فيَّ الأمل، وشعرت بقليل من الراحة، أما نجوى فلم تستطع أبدًا إمساك دموعها، تحضنني وتواسيني بكل كلمة طيبة وتفاؤل كبير..بعد تحقيق وكيل النيابة معي وأخذ أقوالي وإمضائي عليها، تم ترحيلي إلى غرفة الحبس حتى موعد جلسة المحاكمة.

الجلسة..

بعد مرور عدة أيام قاهرة وضنكة داخل غرفة الحبس المؤقت جاء موعد محاكتمي، تم إخراجي وترحيلي إلى المحكمة مكبلة ومحطمة، أراقب كل شيء تحت نوبات دوار وغثيان شديد حتى لحظة وصولي قفص الاتهام..

" أنا بقفص الاتهام"

شعور صاعق ومريب!



لم أتخيل يومًا في حياتي أن أقف مكاني هذا متهمة وخارجة عن القانون! أنتظر حكم سلاكي وفرجي بكل حرقة وقهر شديدين..

دخل خالي "سالم" وأختى "نجوى" يحدقان نحوي بشفقة وتحسر وسط مجمع من الناس الجالسين الذين ينتظرون انطلاق المحاكمة.

لم أتوقع يومًا في حياتي أن أعيش لحظات مرة مثل هذه، وأن أقف متهمة في قفص القانون، فتاة خارجة عن القانون..

"فتاة حشيش"

كل الناس تنظر إليَّ بإشمئزاز، تمنيت الموت من كل قلبي، على أن أعيش هذه اللحظات المدمرة.

لم أتوقع أبدًا أن أقف متهمة أمام عائلتي الفاضلة التي يعترف لها الجميع بحسن أصلها وطيبة أفرادها!

أن أقف متهمة أمام أبي سالم ونجوى!

والأسوء من كل هذا الأمر أن محامي الدفاع هو "بدر" خطيبي السابق وابن خالي الذي تربى معي!

و ما أذهلني حقًّا ودمرني هو التالي!

أغرب ما حدث في حياتي إلى حد الساعة!



لم أصدقه! أراقب بذهول ومرارة!

الأكثر إدهاشا والمحزن أن من جميع قضاة قسنطينة، شرقها وغربها!

"تكون أمي هي قاضية المحاكمة"

ما أغرب الحياة..

لم تصدق عيني ما رأته لحظة دخولها إلى القاعة، وجلوسها بهدوء وبدأت الجلسة...

أمرت محاميَّ الذي هو ابنها بإلقاء مرافعته الدفاعية، بنظرات مرتبكة، بدى "بدر" شجاعًا وواثقًا وألقى كلماته بكل عزم وشدّة، استند إلى أدلة ضعيفة لا يملك سواها تتوسطها حسن سيرتي الذاتية، وعدم انتسابي إلى سوابق عدلية تذكر، طالبًا القاضي الرحمة والشفقة على فتاة يتيمة وبسيطة وذات خلق عالٍ ومستوى دراسي رفيع!

بعد مرافعة بدر، سألتني القاضية "أمي" هل لديك ما تقولينه؟

فقلت لها بنبرة خوف وحيرة واستحقار في نفس الوقت: كل شيء قاله المحامي صحيح أنا فتاة متعلمة وليست لدي أي مقومات إجرامية ولا أعلم أبدًا سبب وجود تلك المخدرات داخل حقيبتي لكن



أدرك جيِّدًا أنها دست لي من قبل شخص يكرهني ويمقتني بشدة ويريد تدمير حياتي ..و..

ثم أجهشت بالبكاء ولم أستطع تحمل كل ما يحصل لي من صدمات وتأثرت عميقا بهول هذه المصائب المتتالية، وجلست مقهورة أنتظر حكم قاضي! هي امرأة كانت قدوتي طوال سنوات حياتي، امرأة أحببتها كثيرًا وتعلمت منها الكثير..امرأة أسميتها.."أمي"..

جاء وقت إلقاء الحكم، نبضات قلبي تتسارع والخوف يقتلني، أمي بكل قوة وجبروت ألقت الحكم عليَّ، بعد التشاور وسماع كلمة الشهود "رتاج" و"آسيا"

قائلة: بعد التماس حسن السيرة الذاتية للمتهمة ولعدم توفر أدلة كافية تبرئ المتهمة، وإمساكها بالجرم المشهود، وسماع كلمة الشهود..

حكمت المحكمة على كيندة مهران..

"بالسجن لمدة ثلاث سنوات"

ما إن نطقت بحكمها، صعقت وتجمدت مكاني..

أغمي عليَّ بالكامل وسقطت في وسط القفص، وانطلقت نحوي نجوى تبكي وتصرخ، كيندة... كيندة.. كان ذلك لقائي الأخير مع عائلتي في المحكمة، فقد ضاعت كل أحلامي وآمالي، وصرت مجهولة دون



هوية، فقد أصبحت خريجة سجون بدلا من طبيبة متمرسة وفتاة من عائلة راقية.. ماضية بمستقبل غامض، متحسّرة بشدّة على كل ما فات وعلى كل ما هو قادم..

"كل شيء انتهى في مهب الريح.. "

هكذا، وبطريقة محيرة اختفى كل أحبتي عني بلمح البصر بت وحيدة بين أربع جدران، بعيدًا عن أبي "سالم" وأمي " فيروز" و"بدر" وعزيزتي" نجوى"

"وعن حبيب قلبي وروحي لؤي"

لا أعلم حتى بأي مكان هو الآن وهل سمع بما حل بي، ماذا سأقول له؟

كيف أفسر له أني مظلومة ومسجونة زورًا وكذبًا، قلبي يخفق بشدة كلما تذكرته وكلما ظننت أنه سيتركني حتى هو! لم يبق لي من ذكراه الحميمة إلّا صورة صغيرة محتفظة بها داخل ملابسي، وصورًا كثيرة داخل عقلي وقلبي، وذكريات جميلة أحن لها كلما وضعت رأسي على الوسادة..

بعد تحويلي إلى سجن النساء التابع لولاية قسنطينة، أدركت حينها حقًّا المصيبة التي حلت بي، فهناك رأيت نساء كثر... خارجات عن القانون، منهن من اتخذت في قضية مخدرات ومنهن من اتخذت في



قضية دعارة، ومنهن من قتلت أيضًا، ومنهن من غدر بها الزمان مظلومة مثل حالتي إلى آخره.. نساء، مسجونات كثر وحكايات عديدة..

"نعم إنه مكان تشمئز منه القلوب!"

"في الزنزانة"

أين حديقتك المزهرة يا حبيبي..

لم تترك لي سوى دموعي وتراتيلي.. جرحي ينزف ولا أستطيع تضميده، ليتني آرى محياك العذبة حتى في آخر أنفاسي..

لتتجرد حديقتي ولينزف جرحي! ليس لي سوى آهاتي وأحزاني، لا ذنب للجرحِ إن لم يضمد ولا ذنب للروح إن غادرت؛ فأنت لم تترك لي رفيقًا سوى حنيني واشتياقي..

موسيقاك الخليلة تغلغلت روحي برحيلك..

هي تواسيني.. تعزيني.. تحييني..

بعد فاجعتي هذه غدوت منسية تحت الأطلال، بين المرارة والخذلان وتحدي الصمود.. ختمت قصتي في بدايتها بظلم وقهر أوجعت قلبي الرهيف.. تحدث قلبي معي وزادني وجعًا.. كيف والقادم أعظم!



اختفت مفردات الوصف جميعًا.. قلبي يؤلمني أصبحت هشة وضعيفة..

هيهات! وحبيبي الوحيد ظلمني.. ضاقت نفسي مع سيف الداء المسلط، كيف لا! وحبيبي هو الدواء! لله شأن تولعي وتمنعي.. في سهب تراتيلي يكمن اشتياقي.. أنا التي بين عشقك وجمال عينيك أزور الفلك والكون الأعظم..

أيام صعبة ومرة مرت عليَّ هنا، تدهورت حالتي الصحية وسقط وزني كثيرًا، لأني لم أعتد على هذا الأكل المقرف وهذا السرير غير المريح، أسهر ليالي كثيرة إلى حد الساعة الرابعة صباحًا، أتقلب في فراشي أندب حظي التعيس ومعيشتي الضنكة، أبكي في الزوايا وأحلم ب"بلؤي" في كل لحظة وأحن إلى ملقاه حد الجنون؛ فقد اشتقت إليه كثيرًا..

لكني اليوم تحسنت قليلًا بعد مرور أربعة أشهر، اعتدت على التغيرات الحديثة وعلى رفقة بنات السوء بالنسبة للمجتمع اللواتي هن برفقتي، لكل واحدة منهن حكاية كبيرة وعند سماعي لإحداهن وكيف غدر بها الزمان، أترحم على حالتي وأحمد الله.

تعرفت هنا على صديقتي "سارة" والتي هي أكبر مني بعام فقط أثناء عملنا بالمطبخ، حين كنت أغسل القدور الكبيرة بعد انتهاء وجبة



الغداء، هي كانت أمامي تحمل الصحون إلى الجهة المقابلة لي، حتى رأيتها مترنحة وساقطة مثل ورقة بائسة، وقد كسرت كل الصحون مما أنتج ضجة كبيرة التفتت إليها كل سجينة بالمطبخ.. أسرعت نحوها وجدتها قد أغمي عليها كليًّا، والعرق يتصبب من جسمها الهزيل وبعدما أسندت رأسها على ركبتي وتحققت من دقات قلبها وتنفسها، فلا تنسوا؛ فأنا طبيبة!

بعدما فحصتها بطريقة تقليدية، عرفت أنها "أنيميا"، وهي سبب نوبتها، ثم أتت الشرطية "صافية" وهي المسؤولة عن عنبرنا وعن أشغالنا، فكما عرفنا من السجينات القديمات هنا، أنها شرطية صعبة الميراس وحادة الطبع وتكره كثيرًا توسخ الأرضيات، ممتلئة الجسم وخشنة في معاملتنا وأحيانًا تضرب السجينات عند مخالفة تعليماتها.

أقدمت أمامي بنظرة حادة وشريرة وقالت لي:

ما بها هذه المسجونة؟ ونزلت تحركها بيديها بقوة قائلة لها: انهضي يا مسجونة، انهضي!، ليس لدينا الوقت لهذه السخافات؛ فأنا أعلم كثيرًا هذه الحركات الدنيئة كي تهربي من العمل..

أخبرتها أنا أنها بحالة نوبة دوار جراء العمل الشاق وأنها تحتاج إلى نقلها إلى المشفى للراحة.. لم تكترث لكلامي تلك الشرطية البائسة



أبدًا، بل دفعتني ونادت على شرطية أخرى ليتم نقلها إلى طبيب السجن..

ساعدتهم في نقلها وبعد تلقيها العلاج هناك، أمر ذلك الطبيب بالراحة لها مدة ثلاثة أيام..

فيما كنت أنا و"سارة" وبعض شريكات الزنزانة نسلي أنفسنا بالحكايات المتنوعة على كل واحدة منا، كنا نسر أحيانًا لمواقف مضحكة وطريفة وأحيانًا نحزن بشدة على بشاعة الناس وظلمهم لنا..

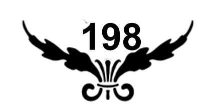
توقفنا جميعًا عند سماع صديقتي "سارة"، فتاة نحيفة وصاحبة ملامح جميلة وقلب طيب، وانسابت أنظارنا جميعًا نحوها، تسرد لنا وقائع بائسة كانت تعيشها في عائلتها الفقيرة، ومع زوجة أبيها القبيحة والمتعجرفة..

تحكي بعينين باردتين كيف كانت تظلمها وتحرمها من أدنى حقوقها باسم التملك والسيطرة، ووالدها لا يحرك ساكنا أمام كل هذا..

شعرت بالأسى حيالها..

بكت بضعف ثم قالت:

تسعة سنوات من الظلم والإهانة والعيشة المرة معها، أخدمها وأخدم أبناءها، دون حتى كلمة شكر واحدة تذكر، صبرت وصبرت



وصبرت... لكني بشر وروح ولي آخر، يوم شجارنا العنيف حين صفعتني بكف من حديد لم أتمالك نفسي دقيقة واحدة، هجت وهاج معي كل ماضيَّ معها وانفجرت عليها.. و من غير قصد دفعتها بقوة مما جعلها تسقط برأسها على طاولة الزجاج التي كانت وراءها، سقطة لم تنهض بعدها أبدًا، انعكفت متهاوية الأوصال على ركبتيَّ المرتجفتين من هول ما اقترفت يداي، أراقبها بسكون وريب شديدين، وهي غارقة في دمائها.. بكيت كثيرًا، ليس عليها!

بل على سوء حظي وقدري! بكيت على سنواتي مع امرأة شريرة وجبارة قضت على طفولتي في حياتها ودمرت مستقبلي في مماتها..

حكم عليَّ بخمسة عشر سنة وضاعت حياتي ثم أبصرت نحونا بكل معاني الألم والهم أكملت قائلة: وها أنا هنا معكم! أشرب من كأس الذل والإهانة من وعاء جديد.. أحرقت قلبي "سارة" بقصتها التعيسة، فهي مثل كل فتاة صغيرة منطلقة في الحياة، كان حلمها الدراسة والعمل وكان من حقها الحب والزواج والعائلة التي تنتظر قدومها.

أصنافًا مصنفة من الإهانات والعذاب داخل هذا السجن الذي ينحر ويوجع النفس والبدن من مجرد تذكره فقط، أمضيت أيامي فيه من العام الأول نهارًا في الأشغال الشاقة وليلًا بالكوابيس المفزعة وعذاب الحنين والشوق الكبير لحبيب نسيني وفرط فيَّ بكل سهولة، لا



رسالة ولا جوابًا أكيد، ولا حتى زيارة واحدة.. يوم الزيارات هنا هو أشد وقعًا بالحزن والألم على قلبي؛ فمنذ دخولي هنا لم تأتني سوى زيارتين فقط من قبل "نجوى" و"خالي"، أراقب باستمرار كل أسبوع زيارة "لؤي" بفارغ الصبر والأمل..

تمنيت لو أني لم أخلق!

و تمنيت لو أني لم أحب ولم أورط نفسي في عشق "لؤي" الذي دمرني وزاد في عاطفتي بجنون.. تمنيت لو أني بدون قلب وأحاسيس لكي أواجه بقوة أيامًا قاهرة وصعبة مثل هذه..لقد أصبت بعاهة مستديمة في نفسيتي، أدت بي إلى الخوف المستمر والشديد من كل شيء ومن كل شخص، أتوسوس من أي وقع مهما كان صغيرًا..مرضت فيه مرات عدة، وأحيانًا تجوز بي أيامًا عدة مستلقية على سريري بالزنزانة الذي كرهني وكرهته.

تشفق على حالي صديقتي في الأوقات الصعبة "سارة"، تخفض من حرارتي وتتلو عليَّ آيات قرآنية، تعتني بي كلما اشتد بي المرض والحزن ..

"كنا صديقتين حميمتين"

صديقتين بُنيت أعمدة أخوتهما وصدقاتهما على الحب والتعاون وتبادل كل حزن ومرارة وخذلان، في أصعب الأوقات...



سبتمبر/ 2005

كان ذلك يوم الجمعة يوم الزيارة المعتاد، لحظة منادتهم على اسمي" ..كيندة مهران" لديك زيارة من طرف شخص يقول أنه خطيبك واسمه" لؤي !"

فرحت بشدة حتى أنى نسيت كلى عذابي ومأساتي.. نسيت كل دموعي وآلامي في لحظة واحدة! قلبي يخفق بعنف ونشوة السعادة تخترق روحي! تنفست الصعداء وقلت بنبرة مستهدفة.. حاضر!.. تنقلت بخطوات راقصة برفقة الشرطية "صافية" مكشرة الوجه إلى مركز الزيارات.. فور دخولي انسابت أعيني تحدق بشغف وحنين تبحث بكل عزم عن عشيقي وروحي" لؤي"!

"رأيته أخيرًا! ها هو أمامي بشخصه وروحه"

ليت الزمن يتوقف هنا! ليشهد العالم على حبي الكبير له وشوقي المتدفق بشدة! ليشهد على هذه الحظة التاريخية، لحظة موعد تنبعث منه كل معاني الحب والغرام.. ليتني استطعت تصوير ذلك الوجه البريء وهو يراقبني بأعين حزينة ومرهفة.. وقفت أمامه أحاول تصنع القوة والثبات، ما إن نظر في عينيَّ وقال بشيء من الخجل والألم:

كيف أحوالك يا" كيندة"؟



ما إن مرت بضع لحظات وبعد كلماته حتى ضاقت بي الدنيا وانكمشت نفسي حتى انسابت دموعي ساخنة وحارقة، تتلوها الشهقات قائلة له: لماذا يا" لؤي "لم تزرني أبدًا؟

لماذا لم تحاول حتى الاطمئنان عليَّ؟

ألست خطيبتك وحبيبتك وأقرب الناس إليك كما كنت تقول لي! سكت برهة ثم حاول مسح دموعي بعطف، لكني لم أترك له المجال وأخبرته بشدة بأن يجيب.. نظر إلي بخزي ونبرة هزيلة ومستضعفة قال: أنا لا أصلح أن أكون حبيبك أو زوجك! أنا شخص ظلمك بشدة ولم تجديه برفقتك أمام محنتك.. كيف استطعت أن أصدق كل ما قيل لي دون حتى التأكد؟ استخففت بحبك وسببت لك الحزن.. لقد أتيت لك خاضعًا ومتأسفًا وطالبًا سماحك ورحمتك علي.. قلت له وأنا أشتد غيظًا:

لماذا يا "لؤي" كل هذا؟؟ لقد وعدتني بأن تهتم بي وترعاني؟وعدتني بأنك ستكون لي الأمن والأمان؟ لم أرَ منك سوى خذلان وآلام، تركتني في الزوايا أتحسر على كل كلمة حب وشرف.. أتحسر على كل ذكرى جميلة منك! كيف أسامحك؟

كنت أراه أمامي نادمًا وساكنًا، لم يستطع حتى النظر في عيني.

قال منكسرا:



كلامك يقطع قلبي يا كيندة قطعة قطعة، من حقك أن تعاتبيني افعلي واطلبي مني ما تريدي، لكن حبًّا بالله سامحيني؛ فعذابك حمل صعب فوق أكتافي!

لن أستطيع أن أسامح حالي ما لم تسامحيني أنت! لحظتها بدر مني كلام قاسٍ وجارح وقلت بتجبر مصطنع: لن أسامحك ما حييت.. ولا أريد أن أرى وجهك هذا هنا مجددًا، وانسَ أنك عرفتني في يوم ما..

سكت مباشرة... ونزل بعينيه إلى الأرض متهربًا، اغرورقت عيناه بالدموع وحاول مسحهما بيديه.. حاول إخفاء تلك الدموع البارزة دون توقف.. حتى نادت الشرطية وهي تصفق بيديها.. انتهى موعد الزيارة، لم أستطع التحكم بنفسي بتاتًا أكثر من هذا لو بقيت معه وقت أطول لارتميت في أحضانه من هول حنيني وحبي له، بالرغم من كل ما فعله معي.

نهضت ضعيفة ومنهارة وحرارة جسمي عالية ووجهي منتفخ من كثرة الدموع..غادرت نادمة على ما بدر مني قائلة في نفسي: كان يمكن أن أسامحه!

فأنا لم أعلم حتى ما حدث معه منذ مصيبتي؟

و لم أسأل حتى؟



التفت ورائي مبصرة إيَّاه لا يزال جالسًا في موضعه يودعني بعينيه النادمتين ووجهه الجميل حتى وهو حزين..

انقضت أيامي وساعاتي معك.. ليس لأني مارست نزوتي معك.. وليس لأني أردت البعد عنك.. كنت أحلم دائمًا ببيتي الصغير معك وأنجب طفلي الذي يشبهك..

لكن الأحلام طارت أدراج الرياح؛ فأبصرت نفسي في عتمة السجن أحترق.. لا أنت ولا بيتي ولا صغيري بجانبي!

أمضي أيامي الداكنة بين أربع جدران، تحكى فيها أغرب القصص، ممزوجة برائحة سجائر مخنقة، من نساء ذقن من الذل والمهانة أودية، ذكرتني برائحة سجارتك البهية التي أعشقها، مالها السجارة الآن تكرهني!

قصتنا من قصصهم أتعس القصص.. كان أملي فيك كبيرًا ومصير القلب متعلق بك.. كتعلق غارق بقشة صغيرة على سطح البحر.. لا أعلم لماذا تخليت عني بهذه السهولة؟ وأنت تدرك تمامًا أنك مرسى قلبي وروحي، وأنت سر انتمائي ووجداني.. عذاب السجن ليس بقدر عذاب تخليك عني.. حطمت قلبي ودست على أحلامي بحذائك القوي.. قلت لي ذات مرة أني الهواء الذي تتنفسه، لكنك استطعت التنفس بدوني! مخالب قهرك وقسوتك تنهش قلبي وذاتي.. أتذكر



جيِّدًا كل ما كان بيننا.. ذكرياتك ما تبقى لي.. هي كنزي وثروتي.. أتعلم يا لؤي.. كنت أستطيع أن أتخلى عن حياتي من أجلك.. أن أضحي بسعادتي فداءً لسعادتك.. سامحتك! أجل سامحتك.. كيف لا أسامحك وأنت من أحب وأهوى؟!

وأشفق عليك لأنك لم تعرف قيمة حبي الحقيقة لك.. وأشفق عليك لأنك لم تدرك أني بريئة بقلبك.. وليس بكلام الناس.. لقد قلت أن الحب يحيينا والبعد ينهينا.. كنت محقّا! لقد انتهيت بدونك.. وحملتني من الألم والذل ما لا أطيق! ما ذنبي أنا معك؟ إن خفق قلبي لجمالك الساطع! هل كان بيدي؟؟ هل كان من اختياري؟ سأصبر.. وأشتاق لك كثيرًا؛ فمثواك في قلبي فأين تغيب.. القلب قلبي والنبض سرك أنت.. فأنا أحسك قريبًا إليَّ أكثر من حبل الوريد..

"نجوى"

التقيت لؤي الذي أتى لزيارتنا بالبيت واستقبلناه بخبر مصيبة كيندة ودخولها السجن ظلمًا وتلفيقًا.. دهش من هول الخبر وبات حائرًا فيما يفعل، وماذا سيقول لأمه وما يقول الناس عنه! أخبرته أنا بكل عنوة وثقة أن كيندة مظلومة ويجب أن تقف معها في محنتها؛ فهي تترقب زيارتك بفارغ الصبر لكنه صمت.. غادر حزينًا ومنكسرًا وقد علمت من زيارتي الأولى لكيندة أنه قرر الرحيل وفسخ خطوبته لأسباب مجهولة..

بعد دخول" كيندة " السجن، انهال حزن وسكون شديد في منزلنا كل ما فيه تغير كأنها هي التي كانت تبعث كل السعادة الفارطة، تغير كل شيء وأصبح خلل فينا وفي عائلتنا.. حتى أمي حاولت تصنّع القوة والعائلة المثالية القائمة أمام أهلنا وأصدقاء العائلة؛ لكنها لم تعلم أن كيندة هي عمود العائلة وروحها.. وتزعزع العائلة وضعفها بادٍ لا محالة.. أبي أصبح يجلس وحيدًا صامتًا، حائرة في انطوائه الغريب الذي لازمه منذ الحادثة، لا يتحدث إلَّا أحيانًا، وبدر تصرفاته ليست على عادتها وأصبح يدخن بقوة كذلك.. دائمًا أنام في غرفة كيندة أتنهد في يأس، أتفقد ذكرياتي الغالية معها لأن حتى أمي منعتني من زيارتها وزيارة السجن لأسباب أنانية وخوفًا علي.. أصبحت قاسية كثيرًا وتشاجرنا في الحديث مرات عدة.. حاولت عدة مرات ملاقاة صديقتي



"كيندة".. رتاج وآسيا للتحري بشخصي عما حدث معهن بأسلوب سلس وغير مكشوف..

حاولت وحاولت؛ لكني فشلت في جمع معطيات الحدث وتنسيقها مع بعضها تمنيت لو كنت محققة!

لأنقذ صديقتي وأختي التي أحبها وأدرك جيِّدًا أنها بريئة تمامًا من هذه الجريمة الملفقة، حتى أن شكي الكبير انتقل إلى "مليكة" خطيبة "لؤي" السابقة والتي تبغض كيندة ولا تحبها، هي كذلك بنفس الكلية لكنها أخبرتني أنها كانت بمنزلها يوم الجريمة وهذا ما أكده لي بعض الرفقاء في فوجها الدراسي.. جننت من قوة التفكير المفرط، وجمعت كل شيء لكن هناك لمسة ناقصة أو دليل قاطع يأخذني مباشرة إلى مرتكب الجريمة الحقيقي ويريحنا جميعًا أيقنت في ما مضى أن كيندة لم تكن يومها إلَّا مع رتاج وآسيا فقط وتأكدت فيما بعد أنها لم تلتقي بمليكة أبدًا.. ما يعني أن رفيقتيها أو واحدة منهما لها علاقة أكيدة بالقضية.. وجاءتني فكرة حديثة وذكية لا سواها، هي أن أحاول مصادقة واحدة منهما وإحساسها بالأمان من جهتي ومرافقتها إلى منزلها وكسب ودها ثم محاولة تفتيش هاتفها الخلوي لعلي أجد دليلا جديدًا وبالفعل نفذت فكرتي أملًا في تطور جديد، وبدأت أفكر من منهما سهلة الطبع ويمكن تغلغلها بسهولة؟ بعد حديثي مع كليهما ومرافقتهما أحيانًا، وجدت أن رتاج فطنة لكل شيء وذكية جدا



وتهرب مني بأعذار سريعة كلما رأتني.. استنتجت أنه لا يمكن اختراق هذه الفتاة، كما أحسست أنها بدأت تشك بي من طريقة تصرفاتها وكلامها معي.. ثم جاء الدور على آسيا وهي فتاة طيبة وخجولة وطبعها ظريف وخفيفة الظل.. استطعت بسهولة دخول حياتها وجعلها رفيقة حميمة لي، بدأت تحركاتي التحقيقية معها، ذهبت مرات كثيرة معها إلى منزلهم لكن لا شيء يذكر.. حتى أني فتشت هاتفها وخزانتها وكل شيء تملكه، لكن لا جدوى! لم أيأس وحاولت مرارًا وتكرارًا، حتى جاء اليوم الموعود فبعد كل عسر يسر.. يوم صعب! يوم الصدمة والصعقة!

يوم دهشت فيه حد الذهول! عشية يوم الخميس قررت مساعدة أمي في تنظيم أوراقها وكتبها المتنوعة في غرفتها، حتى انساب إلى أذهاننا رنين جرس بيتنا، حفصة لم تكن بالبيت واضطررت إلى النزول لفتحه.. فتفاجأت بقدوم آسيا رفيقتي الجديدة ومعها رتاج، فتذكرت في وقت مضى أني أكدت على آسيا أن تزورني وقت راحتها.. سلمت عليهما وأدخلتهما غرفة الضيوف، نادتني أمي من غرفتها من بالباب؟؟

فأخبرتها أنهما صديقتيَّ حضرتا لزيارتي.. بعد شرب القهوة وتضييفهما قررنا الصعود إلى غرفتي لبعض من الخصوصية ومشاهدة بعض فساتين جديدة اقتنيتها وكذا فعلنا.. بعد لحظات



اتصلت رتاج من هاتفها تخبر أمها أنها ستتأخر قليلًا ثم أقفلته ووضعته على الطاولة أمامي مباشرة، سهوت في كلامي مع آسيا ثم دخلت أمي بوجه مبتسم للترحيب بصديقتي، ونهضتا من سريري متجهتين نحوها لتبادل السلام، لحظتها.. إهتز هاتف رتاج هزة متقطعة لم يسمعها أي منهم إلَّا سواي، إنها هزة رسالة هاتفية!

حملت هاتفها بسرعة البرق بيدي زاحفة فوق الطاولة، وجاءت الصدمة عن طريق الصدفة!

حتى أني تكمشت في مجلسي وتجمدت عروقي لصعوبة حروف الاسم على لساني يتليها بزعفة ومرارة.. قرأتها بسرعة خاطفة وأرجعت الهاتف مكانه.. "ب د ر" لا يمكن هذا؟؟ هل يعقل أن يكون لبدر أخي علاقة بقضيّة كيندة؟ كيف لا! ورقمه واضح وضوح الشمس على هاتف رتاج! وما علاقته بها إذا؟

وكيف جاء هذا على هذا؟ احمر وجهي من سرعة تدفق الدم الهائج والممزوج بالحيرة والفضول القاتل.. أكلم صديقتي بعد مغادرة أمي، حائرة وفضول معرفة حقائق الرسالة سيقتلني!

أحدثهما وأفكر في طريقة للخلاص النفسي ومعرفة ما بداخل الرسالة، بعد لحظات حملت رتاج هاتفها، وأنا أراقبها بشغف وتمعن وأراقب تعابير وجهها المتغيرة فور رؤية اسم المرسل، ادّعت ملاحظة



شعرها عند مرآة خزانتي وفتحت رسالتها وقرأتها بخبث وسرية ملتفتة إلى جهة المرآة، لاحظت أمرًا غريبًا.. ابتساماتها الواضحة في انعكاس صورتها بالمرآة بعد إكمال الرسالة ثم التفتت إلينا تعلمني بكل وقاحة وكذب أن أخاها بعث رسالة يخبرها أنه يجب أن تعود للمنزل.. همّت تحمل حقيبتها بسرعة وتقبلني بنفاق واضح، قائلة لي أنها ستغادر وسوف تعود مرة أخرى.. انقبض قلبي وتحسرت كثيرًا على سوء الحظ، لكنّني حمدت الله على إيجاد طرف الخيط الذي أبحث عنه منذ مدة.

بعد مغادرتهما جلست على الكنبة في الصالة أفكر بتمعن في حل للمشكلة الجديدة وكيف سيكون تحركي الآن.. فكرت أنه يمكن أن تكون رسائل في هاتف بدر أخي وأرقام ستدلني إلى الدليل القاطع .. كان لا بد من تغفيل بدر والاستطلاع على ما في هاتفه.. وحدث ما فكرت فيه بعد مراقبته في نفس اليوم، ودخوله إلى الحمام وعادة بدر يتأخر في حمامه وقتًا طويلًا ما فتح أمامي مجالًا لوقت كثير، انطلقت إلى غرفته واتصلت به من هاتفي لأعرف مكانه بسرعة ووجدته داخل سرواله الملقى على سريره..

فتحته ودخلت إلى الأرقام الكثيرة وتأكدت من رقم رتاج على هاتفه ثم دخلت إلى الرسائل.. ويا ليتني لم أدخل!



وجدت قرابة عشرين رسالة موجهة إلى رتاج في تواريخ متعددة.. قرأتها جميعًا من الأولى حتى آخر رسالة مبعوثة، تحت رهبة ورعشة كابسة، كلمات دمرت كل معنى للأخوة، رسائل فظيعة بكل المعاني.. لاحظت كل معاني الغدر والدناءة، انقبض قلبي وتحجرت في مجلسي أتلو كل كلمة وكل حرف غائصة في بحر من الغيض والتقزز.. بعد قراءة تلك الرسائل الموجهة للشمطاء رتاج، دونت كل أرقامه بسرعة على دليلي الهاتفي، أرجعت هاتفه إلى مكانه وخرجت بخطوات رشيقة، أوصدت باب غرفته بهدوء تام، وانطلقت نحو غرفتي وذاكرتي متوقفة إلّا في كلمات تلك الرسائل، أحاول التفكير في حل يريح قلبي ونفسي بعدما تأكدت من محتوى الرسائل أن "بدر" أخي هو من اشترى قطعة المخدرات.. وهو من أعطاها لرتاج التي وضعتها في حقيبة كيندة التي استغلت فرصة ما واتصلت بالشرطة ليقبض عليها بالجرم المشهود بأمر من بدر.. استغربت بشدة لماذا فعل كل هذا بالفتاة التي أحبها وعشقها في يوم ما؟

لماذا دمر مستقبل فتاة هي أختنا ورفيقتنا وشريكتنا التي تربت معنا منذ الصغر؟ لماذا حطم مستقبلها ودمّر حياتها؟ آه لو علمت كيندة بما في جعبتي لماتت قهرًا وألمًا! بكيت لحظتها على ظلم وغدر بدر لكيندة وما جعلها تعانيه في السجن..



مسحت دموعي بحزم ونهضت واقفة بكل عزم على أن أتوكل على الله وعلى نفسي وأكمل مشواري إلى آخره وأتحدى بدر حتى ولو كان أخي لا يهمني؛ فالحق دوما يعلو ولا يعلى عليه وأنا مع ضميري ومع الحق.. نمت بصعوبة كبيرة ونهضت مبكرة، تمنيت لو كنت في حلم، لكن لحظة استيقاظي أيقنت أنها الحقيقة وحقيقة مؤلمة إلى حد الوجع.. أبصرت بدرًا متجهزًا ومنطلقًا إلى عمله مثل كل يوم، لم أصبر وقررت بعد تفكير كبير مفاتحته في الموضوع.. أمي وأبي بالبيت، لذا قررت فتح الموضوع خارجًا، متفادية معرفة والديَّ لهذه الوقائع المخزية.. طلبت منه بادعاء كاذب تقديمي إلى كليتي في طريقه، فقبل وأمرني أن أسرع فهو مستعجل.. بعد انطلاقنا بسيارته، طلبت منه أن يتوقف جانبًا لأني أريد مفاتحته في موضوع كبير.. احتار لهذا الموضوع ونظرات الدهشة تتسرب منه، ركن السيارة ثم أسكتها وقال لي: ماذا هناك يا نجوى؟؟ هل هو مهم لهذه الدرجة؟؟

أسرعي فأنا مستعجل..

كلما نظرت إليه استحقرته، وكرهته لما فعل وبدون شحنات وبنبرة تهجم قلت: "بدر" أنا أعلم كل شيء يخص قضية كيندة الملفقة!

علمت بالصدفة أنك أنت ورتاج سبب مصيبتها، أعلم جيِّدًا أنك أنت من خطّطت لكل شيء وأنك أنت من أوقعت بها!



اسود وجهه وبدأ جبينه بالتّعرق ونظرات الخوف بادية عليه، وفزع وقال بصوتٍ عالٍ: ماذا تقولين؟

من أخبرك بكل هذا؟؟

هل تتهمي أخاك الذي عاش معك وتعرفينه حق المعرفة بهذه الاتهامات الباطلة.. قولي لي الآن من أخبرك وسوف أثبت لك العكس! قلت بعدما حاول الإنكار بثقة: بدر لم يخبرني أحد! لقد رأيت كل شيء بأم عيني على هاتفك الخلوي وكل تلك الرسائل المقرفة.. خارت قواه وزاد هلعه واسود وجهه أكثر.. بدأ يهمهم.. ما.. ما!.. ماذا تقولين؟

يكفي يا بدر إنكارًا وكذبًا فقد بتّ مدركة لكلّ ما حصل، بكل جدية يا ابن أمي وأبي، أنا لا يشرفني ولا أقبل أن يكون أخ لي مثلك متعجرف وظالم وغدار.. لا يشرفني أن يكون لي أخ مثلك، وقح وخسيس إلى هذه الدرجة، كل ما سأقوله هو.. إمّا أن تذهب حالا وتبلغ الشرطة وتعترف بما اقترفت يداك ويأخذ العدل مجراه.. وإن أبيت ذهبت أنا لأبلغ عنك ولديَّ شهادتي ودليلي الجديد..

ثم قال بتغطرس: هل تريدين تدمير حياة أخاك من أجل فتاة أحببتها وبنيت معها كل مستقبلي، لكنها تركتني ورحلت مع شخص آخر تركتني أتعذب وبكل إهانة؟



نعم أنا من خطط لكل شيء وأنا من دسّ لها المخدرات بالتنسيق مع زميلة لها، استطعت بكل سهولة جعلها تحبني وتفعل أي شيء من أجلي.. انتقمت وانتقمت ولست نادمًا أبدًا.. هجرتني وجعلتني أضحوكة أمام أهلي وأصدقائي وكل الناس.. ولكنّني من جعلها أضحوكة مدى الحياة!

صُدمت من الشر البارز في كلامه وما كان يخفي عنا طول هذه السنوات..

إنه مريض نفسي!

حتى إني خفت منه أنا كذلك.. بدر أخي بدر كل هذا منه،..يا للهول!

قلت له: اسمع هذا آخر ما لدي وأنت لك حرية الاختيار وهممت أفتح باب السيارة للمغادرة لكنه أمسك يدي قائلًا بذعر: لا يمكن أن تفعلي ذلك؟ اسمعي أعلم أني ارتكبت خطأ، وسأحاول تعويضها عند خروجها لأني لا زلت أحبها وسوف أتزوجها وأعوضها عن كل ما عانته..ثقي بي.. سأمحو كل دمعة وكل حزن اعتراها..

نظرت إليه باشمئزاز وأيقنت أنه بدون قلب وضمير حقًّا وقلت له:

اليوم أنت حقًّا لست أخي، ولا أريد رؤيتك مرة أخرى، أنت عار حقيقي.. بكل هذه السهولة والبرودة ستعوضها عن كل ألم وعذاب أنت سببه! ما أقساك وإني حقًّا أشفق عليك!



ثم دفعت يده عنّي بقوة وفتحت باب السيارة بغضب كبير، استقلت سيارة أجرة متوجهة إلى مركز الشرطة دون رجعة وبقرار من حديد..بعد وصولي وإخبارهم عن الأحداث الجديدة وعن الدليل الجديد.. قبض على بدر أخي في نفس اليوم في مكتبه هو وصديقته رتاج التي جرجرت من منزلها، وحقق معهما وظهرت الأدلة الجديدة وقبض حتى على التاجر الذي اشترى المخدرات من عنده. زلزل خبر إلقاء القبض على بدر نفسية كل من أبي وأمي، وصعقا لهذا الخبر وإثبات إدانة كليهما.. أمّي أغمي عليها ونقلت إلى المستشفى منهارة على أخي وضياع مستقبله

مكثت يومين هناك تحت تأثير الصدمة وخرجت في حالة يرثى لها.. جاء موعد المحاكمة الاستئنائية، وكانت المفاجأة العظمى هي أمر للقاضي الأول المسؤول عنها بمباشرة الحكم الجديد والنهائي..

و القاضي هي أمي "فيروز سرحان.."

قضاء الله وقدره أن يأتي اليوم الذي تحكم على ابنها باسم القانون، كما حكمت في وقت مضى دون رحمة على فتاة بريئة هي من ربتّها وآوتها..حكمت بكل ألم وقهر بكلمات حرقت روحها قطعة قطعة، حكمت على بدر بالسجن لمدة سبع سنوات وعلى رتاج بمدة ثلاث سنوات.. وتمت تبرئة" كيندة" ورد اعتبارها بطلب السماح، وغرامة مالية على المتهم الحقيقي.. فرحت كيندة بجنون في قفصها ونالت ما



تستحق، بعدها بلحظات قليلة وأمام حشد صغير من مجمع الناس الحاضرين ورجال القانون، نهضت والدتي للمغادرة بوجه شاحب سقطت في نفس مجلسها دون حراك!

نقلت مرة أخرى إلى المشفى لكن هذه المرة أصابتها نوبة مرض السكري ونقلت بسرعة إلى العناية المركزة... منذ ذلك يوم وأمي تعاني من مرضها الشديد والمزمن وأصبحت تدخن بعنف، أما أبي العزيز فقد انعزل نهائيًّا عنَّا وأمسى في عالمه الانطوائي.. تقطّع قلبي على كل ما حصل لنا منذ أن دمر بدر سعادتنا وعائلتنا الفاضلة بغدره وأنانيته، تقطع إربًا إربًا، كيف كنَّا وكيف أصبحنا!

أطلق سراح "كيندة" وتمّت تبرئتها أمام كل الملأ وكل العالم، وعادت تزاول دراستها الطبية كما كانت لكن!

أذكر أنها في زيارتها الأخيرة لنا، كانت دقائق مؤلمة بفظاعة، أحضان ودموع جارفة وتحسر مرير، اطمأنت على حال والدتي وأبي وسامحتها بكل ود، ظننا أنها عادت لنا! لكنها عادت لتودّعنا..

غادرت" كيندة" وتركتنا غارقين في بحر من الأسى وألم الفراق، أخبرتنا أنها وجدت عملًا جديدًا ومسكنًا وسوف تعتمد على نفسها..



خذ قراراً بأن تكون سعيداً وحينها

ستكون أنت وبهجتك معاً جيشاً لا

يقهر في وجه الصعوبات..

وليام شكسبير

حضر" لؤي "جلسة تبرئتي وفرح بشدّة وغادر بهدوء بعد تهنئتي من قبل الأهل والأقارب والصديقات..

"بدر" ابن خالي الذي كبرت معه في بيت واحد، وكنت في وقت مضى خطيبته، وادعاؤه حبه الكبير لي، دمر مستقبلي دون رحمة وشفقة؛ لكن الله نجاني ورحمني برحمته الواسعة، "يمهل ولا يهمل" ..ذاق من نفس الكأس التي سقاني منها..

و نال جزاءه، قررت نسيان كل ما حدث والمضي في طريقي، وأحلامي لكن!

دون عائلتي هذه المرّة!أدركت أن رجوعي إليهم مستحيل!

فقد حصل ما حصل!

عند سقوط المزهرية وانكسارها لا يمكن إرجاعها مثلما كانت، أيقنت أنه حان وقت الاعتماد على نفسي..فور خروجي من باب السجن سعيدة ومبتهجة بغبطة، وبعدما ودعت شريكاتي في الزنزانة صديقتي "سارة " بحزن ودموع وأخبرتها أني سأزورها دائمًا..

وجدت "لؤي" واقفًا بأمل وسرور ينتظرني!



تملكتني أحاسيس زمردية من هول الشوق والحنين، ابتسمت له بحب واشتياق..

قال بحنان و فرح: مبارك على براءتك..

كيندة حمدًا لله على سلامتك..

قلت: بارك الله فيك، وشكرًا على قدومك وتذكرك لي!

قال بشيء من الحسرة: لقد فكرت في كلامك الأخير معي وأيقنت مدى تهاوني وعدم تقدير حبك الثمين..أيقنت أني أستحق عذاب فراقك إلى أجل غير مسمى..أتيت لأراكِ لآخر مرة وأودعك..أتمنى من كل قلبي وروحي سعادتك مع الشخص الذي يعرف قيمتك الحقيقة..و يحبّك بكل جنون، فأنت لؤلؤة ثمينة تميل لها كل العناق، وتستحق أغلى التضحيات.. طبطب على يديَّ بعينين لامعتين بحزن عميق واضح وضوح الشمس، دبّت كلماته جوارحي، وأحسست أن قلبي سيتوقف، فهو سبب نبضه وخفقانه المستمر..غادر نحو سيارته منطلقًا إلى وجهة أخرى بعيدة عنّي وعن مشاكلي، أبصرت نحوه بقلب متقطع..أحسست أن القطار يفوتني وأن حياتي بلا معنى بدون حبيبي "لؤي"..

بدون مقدمات.. صِحت بأعلى صوتي..لؤي.. التفت نحوي بحيرة ودهشة، وانطلقت بشخصي أخطو خطوات سريعة نحوه هو ولا



سواه أحد..مرتمية في أحضانه بدموعي الحارقة أطبطب على صدره بيديَّ وكل المارة يراقبوننا في دهشة، قلت له:

هل ستتركني مرة أخرى يا لؤي؟!

هل ستفرط في حبنا بكل هذه السهولة؟!

لقد سامحتك من كل قلبي.. كيف لا؟!

فمن عشق بقلبه وروحه يسامح بكل سهولة..

مسح دموعي بحنان يذرف دموعا مزّقت روحي، قائلًا: ويداه حول خديَّ: لقد قصّرت في حقك كثيرًا وأستحق ما حصل لي..أقول لك بكل صدق حياتي جحيم بدونك وسوف أفعل المستحيل لأعوض عن كل الذي فات..

و احتضنَّي بقوة..

مرّت أيام عدّة وأنا متواجدة بمسكن "لؤي" مع أمّه التي علمت بكل ما حصل لي، أدركت أنّ كلام الناس عليَّ وعلى لؤي كثر والأقاويل الدّنيئة لن تتوقف ويجب عليَّ المغادرة إلى مسكن آخر والعثور على عمل مؤقت..

فبعد خروجي من السجن تغيّرت أمور كثيرة في حياتي، بعدما كنت محطمة بدون أحلام ومستقبل بعث فيَّ أمل جديد ، وكان لا بد من



تقبل الواقع وبداية حياة جديدة..كان هناك دافع قوي في صدري أن أتجاوز كل العقبات، فأنا أعلم أنه ليس بالأمر السهل لكن عليَّ المحاولة والمثابرة..لؤي يخبرني دائمًا أني فتاة قوية ولديَّ مستقبل واعد وهذا ما يجعلني سعيدة ومتفائلة..

لكن كانت مهمة صعبة جدًّا؛ فبعد عودة لؤي وتوديعه لي، ورغم جل محاولاتي العديدة لم أجد عملًا!

عملًا يلبي كل احتياجاتي من أكل وشرب وملبس وكراء منزل، بعد إلحاح لؤي عليَّ لمساعدتي، إلَّا أني عارضته وأفهمته قناعتي بالاعتماد على نفسي، فقبل بصعوبة وشجعني بقوة.. حاولت العمل في مجالات عديدة، لكني لم أجد إلَّا أبشع النظرات والمعاملات من طرف أرباب العمل التي تشي بالخبث والاستغلال

لكني لم أكن لقمة سائغة لأي شخص؛ فكل عقبة مرت عليَّ إلَّا وزادتني حكمة وعزيمة.. و كلما اشتقت للؤي نظرت إلى صورته التي تبعث فيَّ القوة والصبر، وإكمال المشوار إلى آخره.. حتى جاء اليوم الذي تعرفت فيه على السيدة "ميرفن"، وهي عجوز مسيحية استقرت بقسنطينة منذ عهد الاحتلال الفرنسي، كانت متزوجة لكاتب جزائري اسمه "فريد فهمي"، كان من أهم رجال المقاومة الذين استغلوا قدراتهم الفكرية لمحاربة الاستعمار، توفي إثر مرضه الشديد بعد الاستقلال بعشر سنوات.. أما هي كانت مغرمة به كثيرًا، وقررت



العيش هنا.. فكما أخبرتني هي أنها كبرت وترعرعت في الجزائر وأنها أصبحت جزائرية تنتمي إلى هذه الأرض الكريمة..تمتلك بيتًا صغيرًا قديم وذا متانة فرنسية قوية، جميل في هندسته وذا حديقة واسعة تتوفر فيها كميات معتبرة من شتى أنواع الورود والزهور.

ما حيرني فعلًا هي ذاكرتها القوية وتذكرها لي! لحظة مروري على محلها في وقت ولى..توقفت هنيهة أتذكر لحظة مروري أنا ولؤي من هنا، حيث أهداني باقة ورود ياسمين تحت ابتسامات تلك العجوز التي قالت لنا حينها:

أنتما لائقين كثيرًا على بعضكما، وأتمنى من كل قلبي سعادتكما وأن يحرصكما الله من العين والحسد، ثم ودعتنا وهي تترقبنا من بعيد كأنها حنت إلى ماضيها.. لحظة وقوفي أمام محلها أسترجع ذكرياتي الثمينة بشم روائح ورودها البهية، سألتني عن لؤي!

بقيت مبلمة أمامها، كيف تذكرت بكل سهولة بالرغم من الزبائن الكثر الذين يتوافدون عليها يوميًّا؟؟

قالت بثقة وهي تلف باقة ورد أصفر جميل لأحد الزبائن، هل استغربتِ؟؟

ضحكت وقالت: أنتما من الزبائن النادرين الذين يعششون في الذاكرة ولا يمكن نسيانهم من أثرهم العميق فينا وروحهم الطيبة،



وخاصة ذلك الحب العظيم المتبادل بينكما، كان سحرًا لا يضاهيه سحر..انظري طوال سنواتي في هذا العمل وخبرتي الطويلة، أستطيع أن أفرق كل شخص ومبتغاه من الورد..الورد مخلوق جذاب وتقبعة فيه جل معاني ورسائل الحب والعشق والصداقة، ولكل منا رسالة هادفة يريد إيصالها عن طريقها..فللورد طريقة خاصَّةً ومرهفة في سرد العواطف والأحاسيس..ذهلت من كلامها وخبرتها الواسعة مع الناس والورود..أدخلتني إلى محلها وأحضرت لي كرسيًّا خشبيًّا وكوبًا من القهوة الساخنة..سردت لها كل قصتي وكل ما حصل لي منذ ذلك الحين، أشفقت على حالي كثيرًا، وعرضت علي أن أعمل معها وأساعدها وأقطن معها في نفس المنزل.. فرحت لهذا العرض وقبلت على الفور..

بعد كل معاناتي وجدت أخيرًا مكان استقرار رائع وبداية جديدة، عند سيدتي "ميرفن" صاحبة الخلق الجميل، تهتم كثيرًا لأمري وأصبحت أحبها..

أساعدها في الاعتناء بالورود وبيعها، وتعلمت الكثير في هذا المجال، كما أساعدها في المنزل أيضًا وأهتم لصحتها فهي تعاني من نوبات ضغط الدم أحيانًا، بتنا مثل أم وابنتها بالرغم من اختلاف الأديان والعقيدة..كذلك هي ملتزمة ومتدينة وأوصلها في بعض الأحيان إلى الكنيسة لتؤدي دعائها وصلواتها..



بعد مرور ثلاثة أشهر!

جاء لقاء لي لم يكن في الحسبان..

عند مجيئ لؤي إلى محلنا الذي علم بشأنه من رسالتي الفارطة، وقف جامدًا في مكانه يراقبني من بعيد وأنا أرش بعض الزهور المتفتحة وأقلم جذورها اليابسة الصغيرة بمقص صغير،لحظة من الزمن الجميل، بعد صبر طويل واشتياق كبير، ها هو "لؤي" يقف أمامي مباشرة ليس بيننا إلّا بضعة أمتار قليلة، نسيت كل من حولي مشيحة بيصري وكل جوارحي نحوه هو فقط، نحو مكان حبيبي "لؤي"، بدأت دموعي تتساقط مثل حبات المطر الحديثة مع ابتسامة الماسية.. تقدم خطوات نحوي.. تقدمت خطوات نحوه.. حتى وصلت إليه وزادت دموعي شدة وحرارة ..هو مبتسم لي بسرور..هو أمامي الآن مباشرة، كل منا ينظر إلى الآخر دون أن ننطق بكلمة واحدة..

"ثم ضمّني إليه بقوة وأطبق عليَّ بذراعيه السميكتين"

و قتها نسيت كل عذابي واشتياقي، نسيت كل دموعي وتراتيلي..صرت أملك العالم في لحظة.. كان كل المارة يسترقون النظرات إلينا بسرور، خاصَّةً السيدة "ميرفن.."



فرحت بشدة لحظة قرار "لؤي" بما يخص حياتنا معًا، في أن نتزوج! كما طلب مني الرحيل إلى بيته أي للسكن مع أمه معززة ومكرمة إلى حين موعد الزواج!

قرار مفاجئ..

فكرة مغادرة المحل والسيدة ميرفن لم تعجبني، وأشفقت على هذه العجوز، التي وقفت إلى جانبي وكانت دعمي وسندي أيام محنتي، فقلت له: في الوقت الراهن لا استطيع! حتى أجد طريقة مناسبة لأزف خبر زواجي لها وموعد رحيلي بطريقة لطيفة؛فهي مهما يكن عجوز كبيرة وتعاني من المرض.

تركني" لؤي "في حالة هيستيرية. .من الفرح والبهجة بعد خبر طلب يدي للزواج.. إلى حيث السعادة والحب الأبدي وتحقيق رجائي من الله، في العيش مع حبيبي وعشيقي "لؤي"..فأنا مستعدة بكل إرادتي وقناعتي للقبول بأي شيء مهما كان صعبًا يا حبيبي، راجية أن تبقيني إلى جانبك فقط، وتحت حماك وظلك أنت فقط حبيبي، فلا طعم ولا لون لحياتي بدونك..بعد مغادرة "لؤي" من منزل السيدة "ميرفن" تركني غارقة في أفكاري وأفراحي وابتساماتي اللا إرادية، حتى دخلت السبدة "ميرفن" تلاحظ بسرور سعادتي التي لم ترها من قبل جاءتني بهدوء قائلة:



مساء الورد عزيزتي" كيندة !" يبدو أنك تلقيت خبرًا جميلًا زرع فيك كل هذه السعادة.

فابتسمت بخجل وقلت لها:

نعم، إنه حتى ليس بخبر سعيد فقط، بل هو كل شيء في حياتي..

قالت لي:

نعم أظن ذلك، لحظة رؤيتي لك يا عزيزتي تذكرت بلمح البصر ماضي الزمردي مع حبيبي "شاكر"، رجعت إلى الخلف بخمسين سنة، في مقهى المنظر الجميل الفرنسي، عند إمساكه يديَّ بكل حنية، وبريق ساطع بالحب ينبعث من عينيه البنيتين، طلب يدي للزواج، وقتها كنت مثلك أنت الآن! لا أستطيع وصف مدى سعادتي وبهجتي ..استغربت حقًّا للسيدة "ميرفن"، كيف عرفت أن "لؤي" طلب مني الزواج دون أن أخبرها؛ فعرفت لحظتها أنها ليست سيدة عادية، بل هي امرأة ذات نظرة ثاقبة وإحساس قوي..ثم ابتسمت وتمنت لي حظًّا أجمل من حظها وغادرت إلى المحل..

أتت تحضيراتنا للزواج بسرعة وهممت مع لؤي لشراء حاجيات الزواج من أثاث جديد وغرفة نوم وفساتين وحُليّ.. كنت سعيدة جدًّا معه، محلقة في السماء مع أحلامي وأمنياتي الوردية مع أنه ترك لي حرية اختيار كل الحاجيات والطلبات..إلى المنزل الجديد الذي اقتناه



مؤخرًا.. منزل في منطقة راقية وجيران لطفاء، يتكون من مطبخ وصالون ضيوف وأربع غرف واسعة متفرعة وحمام واسع..

ليلة زواجنا كانت بقاعة أفراح كبيرة اختارها لؤي، بعد توزيع دعوات الفرح..

أوصلني لؤي إلى الكوافيرة وذهب ليكمل تجهزه ويعود فيما بعد لأخذي معه إلى القاعة..دغدغتني أحاسيس رهيفة وشعور سحري لحظة ارتدائي الحلة البيضاء!

"فستان الحلم.. وروبة بساتين السعادة"

بعد ارتدائي فستان العرس بغبطة وفرح، وقفت أمام مرآة الكوافيرة التي ساعدتني في تجهزي وتبسم لي، شعرت بسعادة كبيرة، وأنا أحملق بشغف كبير في كل جزء مني..

أنتظر لؤي بلهفة..جاء لؤي وتقدم نحو المحل دق طرقات خفيفة على باب المحل، كنت جالسة على كرسي، أخبرتني أن زوجي ينتظرني، حلقت عاليًا بالفرحة والتوتر في آنٍ واحد..خرجت له بخطوات ثابتة ويدي ممسكة بيده..حتى باب السيارة تحت زغاريد الحلاقة ومن معها، فهذه هي تقاليد مدينتي..انطلقنا ولؤي يحملق نحوي بعينين مذهولتين وفرحتين لحسني وجمالي..

قال لي بحسن وطيبة: ما شاء الله!



"أنت جميلة مثل الأميرات"

خجلت كثيرًا لاطراء لؤي ورددت بنبرة سرور: عينيك أنت جميلة يا حبيبي، لذا كل ما تراه سيكون طبعًا جميلًا..

ضحك لؤي وقبل يدي بعطف وقال:

اللهم احفظ حبيبتي وزوجتي من كل سوء، واجعلها سعيدة دائمًا وارزقنا الذرية الصالحة!

وصلنا إلى القاعة بخطوات فوق السحاب، ويدي حول ذراعه أنظر إلى لؤي بكل حب وعشق..

دخلنا القاعة..

و تفاجأت بجمال تنظيمها وتجهيزها، كانت الأرضية شفافة اللون وملساء كالمرآة حتى أني تمسكت جيِّدًا بلؤي خوفًا من سقوطي بهذا الكعب العالي والتعرض للإحراج... المهم أن جمال القاعة رهيب، حيطان مغلفة بزرابي جميلة متناسقة الألوان وبالونات حمراء ووردية، كثيرة ..كثيرة متناثرة هنا وهناك وطاولات مغلفة برداءات بيضاء وسفرة أكل طويلة وعريضة بأشهى وأطيب الأكل والمشروبات..و مغنية معروفة هي وفرقتها في الزاوية الأخرى تغني بصوت عذب للحاضرين.. وبجانبها كرسيَّ العروسين الجميلين..دخلنا تحت تصفيقات حار للحاضرين وأنا سعيدة حد الجنون وغير مصدقة أن الأماني يمكن أن تتحقق مرة واحدة هكذا.. فرحتي كثيرًا



لحضور عائلتي خالي وزوجته وكيندة التي بكت بشدة وهي تحضنني بقوة وسعيدة لأجلي ..ذرفت دموعي معهم ولم أستطع التحكم فيها، دموع السعادة والفرح الشديد.

جلست مع حبيبي لؤي في مكاننا، تحت مباركة كل من حضر هناك حضرت كذلك السيدة ميرفن التي باركت عرسي وجذبتني من يدي أنا ولؤي للرقص، قائلة: هيا ارقصا وامرحا معًا؛ فهذه لحظات تاريخية لا تعوض، خجل لؤي كثيرًا لكنه تشجع وبدأنا أنا وهو فقط بالرقص على أغنية شرقية راقية كل من كان يرقص توقف وصنعوا دائرة وجلسوا على الأرض يصفقون لنا.. لحظات يبكي لها تاريخي، لحظات من ذهب، لحظات شعرت كأني حورية في الجنة تتراقص على نغمات ملائكة فائقة الجمال..كدت أسقط بانزلاق طفيف لكن لؤي تنبه وأمسكني بسرعة وضمني إليه.. ضحكنا بشدة وضحك كل الحاضرين وبعد العشاء وقطع الكعكة الكبيرة وصورنا العديدة مع كل الحاضرين..

أتى موعد رحيلنا إلى عش الزوجية..

غادرنا القاعة بعد ليلة نقشت ذكراها في قلبي، أسعد ليلة في حياتي، غادرنا تحت طبلة الفرقة وأهازيجها وأغنيتنا التقليدية.."زاد النبي وفرحنا بيه، صلى الله عليه وسلم!" ..

بعد ليلة العمر نهضت باكرًا في صباح اليوم التالي، أطرقت نظراتي نحو حبيبي لؤي، نائمًا بجانبي بهدوء ووجهه يشع جمالًا ووسامة،



مسحت على أطراف شعره الناعم بأصابعي ثم غصت في دوامة أحلامي الوردية معه..

قبلته على خده بهدوء وتوجهت نحو المطبخ لتحضيري الفطور؛ فوجدت أمي فاطمة قد أتمت كل التحضيرات قائلة لي: أنت عروس ، ارتاحي فقط سوف أحضر كل شيء بنفسي.

قلت لها: كيف ذلك يا أمي؟ أنت من يجب أن ترتاح وتأمر فقط؛ فأنا جاهزة في كل وقت ابتسمت وعلامة الرضا بادية على وجهها..

قالت: الله يحميك لشبابك يا بنتي ويسعدك!

نهض لؤي وتناولنا فطورنا ثم توجهنا معًا في رحلة للفسحة خارجًا، بعد غداءنا خارجًا اقترح لؤي علي أننا سنتوجه إلى الجزائر العاصمة لتمضية أيام من العسل هناك، وبعد مشاورة أمي قبلت وكذلك قلت لها أن تحضر معنا لكنها أبت.. وقالت أن السفر يتعبها.. إستمتعت كثيرًا بأيام عسل مع لؤي في العاصمة تحت روعة شواطئها الجميلة "شاطئ النخلة" و"شاطئ سيدي فرج.." و التسوق والفسح في حدائقها وسهرات غنائية رائعة، وزيارة مقام الشهيد..قضيت معه هنا أحلى أيام العمر..مرت سنتين من زواجي بلؤي ورزقت بولد اسميناه "قصي" و أكملت تخرجي وأصبحت طبيبة بمستوصف صغير في مدينتي..أعمل نهارًا بجد وأعتني بابني مع أمي فاطمة، وأنتظر دائمًا حبيبي لؤي بشغف واشتياق، كل مرة يرحل فيها كأنها المرة الأولى وكل يوم يمر عليَّ يزيد شوقي له بجنون ..ذكراه تبعث فيَّ القوة والأمل

والصبر، كل يوم يمر أعشقه بجوارحي أكثر ..مرت أيامي معه بسعادة وحب واحترام متبادل، كان رجلًا ولا كل الرجال!، رجلًا من زمن آخر... رجلًا عشقني حتى النخاع..انتقل في الآونة الأخيرة إلى ولاية بومرداس التي لا تزال تقبع فيها مجموعات إرهابية خطيرة، وأعمالهم الإجرامية المنتشرة، كان لابد من الدولة تكثيف التمشيطات والكمائن وحصل..

ديسمبر/ 2008

استطاعت الدولة الجزائرية بجهد أبطالها ونجاح المصالحة الوطنية أن تقضي على الإرهاب في معظم أقطاب الوطن ولم تبقَ سوى جماعات قليلة تتمركز بولايات الوسط..

بعد مرور شهرين متتالين من مغادرة لؤي آخر مرة إلى عمله، لا ينفك شوقي وحنيني له يتركني، صورته الجذابة لا تغادر مخيلتي في كل وقت وفي كل مكان..

لو أستطيع يا حبيبي لؤي أن أدخلك في قلبي وأغلق عليك في بساتينه النرجسية لفعلت!

لو طلبت قلبي لأخذت..

لو طلبت روحي لأهديتك إياها يا زوجي العزيز..

كان اليوم ممطرًا بشدة من غير عادته، وقصي ابني يبكي بحرقة دون سبب فحرت في أمره مع أني حاولت إسكاته بكل الطرق!

بعد مرور ساعة أو أكثر استطاع قصي النوم بعمق، أما أنا فحضَّرت شايًا ساخنًا وملأت كوبي المفضل به، وأبصرت ووجهي يتألق بابتسامة حنين من نافذة غرفتي، أراقب هطول المطر وروعته



على الطريق والأرصفة عن كثب وتذكرت لقاءاتي العديدة تحت المطر مع لؤي حبيبي..

رن هاتف المنزل مما شتت انتباهي وسهوتي العميقة مع ذكرياتي، جلست على الكنبة التي بجانب الهاتف ووضعت كوب الشاي على الطاولة وحملت السماعة ورددت قائلة: ألو من المتصل؟

فرد علي شخص ما.. بصوتٍ خشنٍ قليلًا قائلًا:

هل أنت زوجة النقيب "لؤي محي الدين" ؟؟

انتابني إحساس مرعب وخوف شديد وتعكر ريقي وقلت له: نعم أنا السيدة" كيندة مهران" زوجته..

ثم قال لي: أنا المقدم "طارق وهبي" وأنا القائد المسؤول عن المؤسسة العسكرية التي يعمل بها زوجك النقيب "لؤي محي الدين" في بومرداس وقد تعرض إلى طلق ناري خطير في صدره من قبل مجموعة إرهابية إثر كمين أحاكته المجموعة بغدر وبدون رحمة استشهد الآن تسعة أفراد وثلاثة في حالة خطرة وزوجك واحد منهم وهو قائد المهمة.. الآن هو متواجد في العناية المركزة بالمستشفى العسكري "عين النعجة" بالعاصمة ويجب أن تلتحقي بجانبه في هذا الوقت العصيب.. وأنا آسف جدًّا على هذا الخبر.. صعقت وبهت وذهلت وانقبضت أنفاسي..



لم أصدق.. وأحسست أن روحي سلبت مني بعنوة وصرامة تلاشى كل شيء أمامي، بدا لي السكون والهدوء على نحو غريب، وضعت سماعة الهاتف بسرعة وقلبي يدق بعنف ونفسي يكاد يهرب مني، لم أصدق ما سمعت أذناي، وضعت "قصي" في غرفته بدمعي المتدفق والحيرة القاتلة وهرولت إلى غرفة أمي فاطمة محاولة التمسك في أعصابي، قلت لها أن تنتبه إلى قصي حتى أعود؛ فأنا لدي مشوار مهم، لم أشأ زف هذا الخبر المفزع حتى أتأكد من صحته، لم أصدقه بتاتًا، وتشبثت بأمل حدوث خطأ في الأسماء فقط..

انطلقت بسرعة البرق بسيارتي متوجهة إلى العاصمة والتي استغرقت فيها أربع ساعات، وصلت أخيرًا إلى المشفى وأخذوني بسرعة إلى غرفته..

رأيت حبيبي لؤي.. رأيته من زجاج النافذة للمرة الأخيرة ينظر بعينين واهنتين وحزينتين إليَّ وقد استبد به الألم.. بكيت بشدة وأنا أدعو الله أن ينجيه فهو روحي ونفسي.. أمضيت ستة ساعات من الليل في الممر بجانب غرفة لؤي ..كانت دهرًا بالنسبة لي من الألم والعذاب..

أستطلع في كل لحظة تمر على أحواله من النافذة، وهو ممدود يهذي بشفتيه على سريره؛ فقد منعوني حتى من الدخول إليه، حتى تمر حالته المحرجة، كل أعضاء جسمي ترتجف، وأصبحت بهيئة



ظلت مقهورة والحزن حطمها تحطيمًا، أذرف دموعي وأندب حظي وقدري.. كانت لحظات لؤي الأخيرة مؤلمة ومفزعة، والطاقم الطبي يتلقى رسالة من الممرضة الخاصة أن قلبه توقف ونفسه قطع داهموا الغرفة بثبات وشرعوا في عملهم ومحاولة إعادة نبض القلب وزرع الروح من جديد..

و أنا أنادي وأصرخ بأعلى صوت:

أرجوكم.. أرجوكم..

حبا لله انقذوه إنه زوجي وحبيبي..

ليس لي خليل وأنيس من بعده..

ممرضون آخرون وشخص غريب اجتمعوا من حولي يهدئون من روعي وجنوني.. لكن بدون جدوى.. كيف أهمد وأقعد وأسكت وحبيبي يصارع الموت؟!

إنه حياتي وروحي يا ناس!.. إنه زوجي الغالي ووالد ابني.. إنه كل شيء يا الله ساعدني!

فأنت الشافي والمعافي..

أبصر كل حركة وكل أمل جديد في غرفته الموحشة بآلام نفسية مكتظة من النافذة الزجاجية العريضة للغرفة، جامدة في وقفتي



وأدعوا وأتضرع لله من كل قلبي بأن ينجّيه..في كل صعقة كهربائية على قلبه يتلوى جسمه ويضطرب، وأحس أنا بآلامها في صدري، والطاقم الطبي حوله ينفذ المحاولات الأخيرة.. لكن دون جدوى..

"مات حبيبي لؤي!"

ورأيت الطاقم يغادر بآمال غائبة، لم أصدق.. وانطلقت نحو الطبيب المختص أقبل يده ببكاء يسحق القلوب جثوت إليه أتودده أن يعيد الكرة والمحاولة..

أبى وقال بتهجم:

لا يمكن لقد فعلنا ما بوسعنا.. -رحمة الله عليه-

و قال دون مبالاة تذكر وعدم اكتراث لهذا الشهيد:

البقية في حياتك؛ إنها سنة الله في خلقه، وغادر دون رجعة..

قلت بكفرٍ وصياحٍ أليمٍ:

أي قدر هذا الذي يسلبني حبيبي؟

أي قدر هذا الذي قطع روحي إلى نصفين؟

عن ماذا تتحدث؟ ارجع.. أرجوك يا دكتور!

و بكيت.. بكيت.. بكيت.. صرخت وصرخت..



لكن لؤي لن يعود..

سلّم أنفاسه بعد آلامٍ شنيعة وروح مكسرة، أراد من كل قلبه أن يودّعني للمرة الأخيرة، قرأتها في نظراته الأخيرة وهذا ما قطع قلبي، لكنّ روحه سلبت منه قبل ذلك.. لا زلت غيرمصدقة لما رأيت! لم أستطع الصبر أكثر وتمالك نفسي، فقد مات من أحب وأهوى، بعد محاولات للممرضتين في عدم دخولي، اشتد غضبي ودفعتهم وأنا أصيح بأعلى صوت وأدفعهم عني بكل قوة..فتحت الباب ودخلت بسرعة نحو سريره، وجثوت عليه أحضنه إلى صدري ودموعي تنهمر بغزارة وحرقة.. قائلة بشهق ولعابي متدل من شفتي: لؤي حبيبي.. أرجوك أنت حي أنا أعلم ذلك.. قم يا حبيبي هيا بنا نعود إلى بيتنا وابننا قصي..هيَّا قم يا حبيبي.. لؤي هامد الجثة ودمه على صدري، لا صوت ولا نفس..

صرخت بأعلى صوت ولؤي في حضني بجثته الباردة.. أرجوك يا لؤي لا تتركني يا حبيبي.. والآخرون يراقبون جنوني بثبات وصمت ودهشة على نديبي الموجع..

أبصرت لجثته الساكنة ووجهه الطري لآخر مرة، إنها النهاية يا كيندة صدّقي..



وسوف تتعذبين حتى موتك.. سوف تشقّين الطرق والمصائب وحيدة من دون لؤي، من دون حب وعشق لؤي..ستظلين جثة بدون روح..ستتعذبين حتى النخاع وحيدة ولن يحس أحد بوجعك..

بعد موت لؤي وجنازته..

تحت حضور قادة عسكريين كبار وأصدقاء لؤي من ولايات عدة وأمه التي قطعت شراييني بنديها وبكائها الحاد.. دخلت في عالم من الحزن والكآبة، غادرني حبيبي وعشيقي دون رجعة.. إنه يوم حزني وعذابي لقد رحل حبيبي وتركني..

كيف أشد الرحيل وحدي وهو سندي..

أحببته وأحبني لكنه تركني..

كيف السبيل إليه بعدما أحرقني؟

وعدني! وعدني بالبقاء وتركني..

دمرني! سرقته الأيام السوداء مني ولم يخبرني..

ملك قلبي وسكن روحي قائمًا ثم تركني..

يا الله.. رحماك.. رحماك؛ فقد أحرقني.



لم تمضِ إلَّا خمسة أشهر من وفاة لؤي حتى التحقت به أمه فاطمة بعد فاجعة ابنها التي أدت إلى إنشلال نصفها وعذابها المرير وموتها بعدما أوصتني على نفسي وعلى قصي ابني، ماتت أمي فاطمة..

تركتني مع حزن وألم جديد، ليتني لحقت بهما لأرتاح من فرط هذا الألم والأحزان العميقة..ليتني مت مع حبيبي لؤي ورحمني الله من هذا العذاب!

ليتني لست أنا..

ليت ما حدث لم يحدث..

ارحمني يا الله،فأنا لا طاقة لي بهذا العذاب الجسيم..

لم أستطع تصديق كل ما حل بي وكل ما حدث معي، لم أعد أذهب إلى عملي وأهملت ابني الذي تهتم به نجوى التي تقوم بزيارتي دائمًا منذ موت لؤي..حلّت بي أزمة اكتئاب حادة ونقلت إلى المستشفى وأقمت هناك مدة شهرين كاملين، بهيئة يشفق عليها.. حتى الكلام سرق من لساني ولا أستطيع حتى النطق ببنت شفة..أصبح خيال لؤي وطيفه يطاردني في كل دقيقة وكل ثانية، في أحد الأيام بالمشفى، ساعدتني الممرضة في الخروج إلى الحديقة وتنفس هواء جديد..جلست في مقعد طويل أراقب بجثة خاملة ومنهارة كل ما حولي بسكون..



كان يومًا شاحبًا وحزينًا، لم تكن هناك شمس في المنتصف بل غيوم تكبدت عمق السماء، كان الطقس المستبد بالأجواء رماديًا ويبعث على الحزن..

أحدق بعينين شاحبتين وروح مسلوبة وعدم اكتراث إلى كل ما حولي من نزلاء مشفى آخرين وأشجار..أبصرت هناك من بعيد عجوزًا تقف أمامي مباشرة!

لقد عرفت من تكون!

نفس العجوز العرافة التي التقيت بها في ليلة حالكة على الشاطئ بوجهها البشع والمشوه، تراقبني وهي متكئة على عصاها بلباسها الأسود اللعين.. بدأ دمي يغلي دون حركة واحدة، بركان في داخلي فقط، تذكرت كل كلمة شؤم قديمة، وتذكرت كل كلمة قالتها لي لحظتها..

"استغربت ودهشت"

وقلت هل هي شبح أقسم على تدمير حياتي؟ رمقتني بنظرات مخيفة وأخيرة ورحلت بخطوات ثقيلة، أردت بكل جهدي حمل جسمي المنهار من فرط المسكنات التي أشبعوني بها.. حاولت بكل جهد، سوى أني سقطت متدحرجة أمام مقعدي، أحاول حتى النطق والصراخ لكن لا جدوى تذكر.. أردت اللحاق بها والتحدث معها..



غادرت هي كذلك دون رجعة.. بسرها العميق..بعد فقدان روحي الجميلة وشغفي بالحياة بوفاة لؤي، صارت أيامي كمختلة عقلية في المشفى حتى نجوى في زيارتها لي، تبكي كلما نظرت إليَّ دون أن أحرك ساكنًا؛ فجسمي كله مشبع بالمسكنات وذاتي مقصورة من كثرة أقراص الاكتئاب التي تنسيني كل أهوال العذاب الأليم ومرارة التفكير الدائم في لؤي..

دخلت عالمًا جديدًا مروعًا!

عالم الاكتئاب والإدمان!

السم يسري في عروقي قطرة قطرة، وعداد حياتي مسرع إلى حتفه..حتى جاء لزيارتي الملازم "نبيل صبحي" صديق زوجي لؤي والناجي الوحيد من تلك الكارثة الإرهابية..

دخل إليَّ وألقى سلامه.. كنت أراقبه في سكون ولم أنطق بكلمة واحدة، لم أعرفه حتى قال لي:

أنا الملازم "نبيل صبحي" صديق زوجك وزميله بالعمل..بمجرد تحدثه عن لؤي حتى تركزت عيني عليه واسترجعت قليلًا من روحي الضائعة..

قال لي شاكرًا:



لؤي هو بطل حقيقي لقد أنقذ حياتي من موت مؤكد، وساعد جنودا كثر فإنقاذ حياتهم التي كانت مهددة بموت أكيد من قبل كمين إرهابي محكم وسط غابة كثيفة. لم أنسَ أبدًا تلك اللحظات العصيبة ولؤي يصرخ وينادي لحظة تفطنه للكمين..

وبدأ في إعطاء تعليمات حازمة بسرعة وبراعة قتالية، فقد قتل اثنين منهم وحول مكاني أنا مع مجموعتي إلى أعلى الجبل لتتصحح الرؤية جيّدًا ولحماية بقية أفرادنا من الرصاص المتناثر.. بعد مرور نصف ساعة.. رأيت لؤي يتهاوى بطلقات نارية من بعيد في صدره، سقط مطرحه بشجاعة وبسالة يجر بجسمه نحو شجرة بلوط كبيرة خلفه..

تركت مهمتي وانطلقت نحوه مسرعًا بنفس واحد، فتحت أسرته ليسهل قليلًا تنفسه الضائق، أراه بحسرة متألمًا ويتلوى في مكانه ثم قال بصعوبة كبيرة:

نبيل أنت قائد المهمة من بعدي ويجب أن تكمل المهمة من بعدي، لم أشأ تركه في هذه الحالة، لكنه أصر مندفعًا وأمرني بقوة أن حياة الآخرين أهم من حياة شخص واحد..

انطلقت مندفعًا لإكمال مهمتي، إطلاق ناري دوى كثير وصرخات إصابات كثيرة، وأحداث مريعة..



بعد مضي ساعة تقريبًا، أصبت أنا كذلك في رجلي وهرب بقية المجموعة الإرهابية بعد سقوط سبعة أفراد منهم وألحقوا بنا خسائر جسيمة، انتهى الطلق الناري والصرخات..و عدت مسرعًا للاتصال بالدعم الطبي والقتالي، بعد ذلك اتجهت نحو الكابتن لؤي؛ لعلي أسانده معنويًا وأطمئن على حاله حتى قدوم المساعدة..

وجدته غارقًا في دمائه وورقة بيضاء يمسكها بإحكام في يده اليمنى ورأسه يتدلى هنا وهناك، رمقني بنظرة هزيلة وقال بنبرة مستضعفة: هل انتهى كل شيء؟

هل انتصرنا عليهم؟

قلت له: نعم حصل ذلك ..لكن نحن كذلك خسرنا عدة أفراد قال لي: المهم أن عملنا ما يتوجب علينا وسوف يأتي يومهم هم كذلك..

قال لي: اسمع يا نبيل، ليس هناك أمل في بقائي حي، إنها النهاية وهذه الرسالة أمانة في رقبتك لتسلمها إلى زوجتي الحبيبة..

سلمني إياها وابتسم بشجاعة وأغمي عليه، وبعد قدوم المساعدة تم نقله بسرعة إلى المشفى الكبير..

انهمرت دموعي وضاقت بي الدنيا من كلمات نبيل زميل زوجي، على شجاعة لؤي وتضحيته العظيمة..



أدخل نبيل يده في جيب سترته وسلمني الرسالة، ورقة بيضاء ملطخة بقليل من بقع الدم..

و غادر نبيل متمنيًا لي السلامة والشفاء ..

لم أصبر وتلهفت بحرقة وفضول كبير لأقرأ محتواها..

الرسالة:

من زوجك وحبيبك "لؤي":

حبيبتي .. سامحيني لم أوفِ بوعدي لك.. وها أنا أمضي إلى مماتي تحت حرقة أنفاسي الأخيرة تاركا إياك ورائي مرة أخرى ..لكن هذه المرة إلى الأبد.. كنت تستحقين السعادة لكنّني لم أخلف لك إلّا الدموع.. أعلم أنك تحبينني كثيرًا، وهذا مايؤلمني.. انسيني أحبّي وعيشي حياتك وانطلقي من جديد..أقول لك هذا وأنا أتالم فأنت زوجتي وحبيبتي، أغار عليك حد السيف... لكنك تستحقين السعادة، تزوجي وأنجبي أطفالا.. وكوني امرأة ناجحة.. أنا أعلم أنك ستتجاوزين محنتك بقلب قوي ..ابدئي من جديد لأني أعلم في صميم قلبي أنك امرأة قوية وتستطعين ذلك، الوداع حبيبتي وسامحيني لأني ما أعطيتك إلّا الحزن.. واعتني جيّدًا بإبننا قصي، وقولي له أني لطالما أحببته وعلّميه كل القيم والأخلاق الحميدة، وقولي له أن أباك مات فداءً لك وللوطن الغالي..



أحبك دائمًا وأبدًا.. الوداع حبيبتي.. بعد قراءة الرسالة ضممتها إلى صدري أبكي.. حزنت كثيرًا وزاد عذابي أكثر، أثرت كلماته الأخيرة في بعمق..في اليوم التالي جاءت نجوى لزيارتي..كنت أغط في نوم تعيس، فتحت أعيني غير مبالية.. بمن حولي.. وإذا بي أرى قصي ابني وفلذة كبدي، ابني الوحيد يضحك ببراءة في حجر نجوى، أمام عيني! استفقت من تلك الأوهام والأحزان الفظيعة..

نطقت بألم ونبرة شهق وحنين:

"قصي !ابني الحبيب"!

قلت ذلك بدموعي وحسرتي..

سلمتني إياه نجوى في حضني بهدوء وسلاسة، ندمت على ما فعلته بابني الذي تركته وحيدًا، وتحسرت بشدة عن تيتمه حديثًا، مثل أبيه تمامًا، فهو يشبه في كل شيء..حملقت فيه بعطف وحنان تذكرت لؤي على الفور ورسالته الأخيرة.. وقلت:

" يا ولدي.. يا حبيبي.. كم اشتقت لك!

كم سعدت لرؤيتك!



قلت ذلك وأنا لا أزال أطوق بذراعي بأمان وحنان عليه، وأقلبه من خديه الورديين وجبينه ووجهه البريء..أقبل رأسه ويديه الناعمتين ووجه الناعم في صدري..

قالت نجوى بسرور ودموع تشجيع لي:

هيا يا كيندة ابنك وحياتك تنتظرك..

يجب عليك الصبر والمضي وتحقيق حلمك في الطب..

كل .نفس ذائقة الموت..

و لؤي لن يرجع، مهما فعلتِ، ثم طبطبت عليَّ بحنية وقالت بتفاؤل كبير:

ادعي له بالرحمة؛ فهو شهيد، وبطل من أبطال وطننا.تراجعت للخلف بظهري ودموعي الساخنة وأنا كلي ندم على ما حل بي وبابني وتعهدت بأن أتشجع وأمضي إلى الأمام بكل صبر وقوة وأنا أقول:

لقد ذقت أحزانا مدمرة في حياتي ودرمني فراق لؤي بغتة وانطفأت شمعتي بدونه، تألمت بحدة وتعذبت ليالي وشهور.. هل سأبقى هكذا ضعيفة للأبد؟

سأتشجع وأتعالج وأكرس حياتي لابني الحبيب فقط.

سأعمل بجد وأربيه أحسن تربية وأجعل منه رجلًا صنديدًا كما كان يريد لؤي، سأضحي لأجله هو فقط.

ثم عانقت نجوى بحرارة وهي تبتسم قائلة لي: يجب أن نكمل ما حلمنا به معًا منذ الصغر يا عزيزتي..



مرت ستة سنوات بعد ذلك..

استطعت بعد كل العقبات تخطي محنتي بالرغم من أحزاني العظيمة.. نجحت في عملي كطبيبة جراحة وأصبحت من أهم الأطباء في مدينتي، سافرت إلى مدن ودول كثيرة بغية إكمال بعض بحوثي الطبية والسياحة.. كبر قصي وأصبح في المدرسة الإبتدائية، أصبح كل شيء في حياتي، صرت الأب والأم له..هو ولدي حبيبي ونور عيني ربيته بكل حب وحنان وأمان، و قيم ومبادئ نبيلة..هو نبض قلبي وملاكي الصغير..نجوى تزوجت بسعيد وسافرت إلى ألمانيا واستقرت هناك، توفيت أمي فيروز قبل عامين من الآن خلفت ذكراه حزنًا شديدًا فينا.. أما خالي سالم متقاعد الآن ووحيد في منزله مع كتبه أزوره أحيانًا للاطمئنان عليه.. تقدم لزواجي أشخاص عدة لكن أبيت ذلك.. ورفضت بالرغم من محاولات عديدة.. لن تمحى ذكرى لؤي حبيبي من قلبي مدى حياتي، ولن أتزوج رجلًا من بعده سأظل أحبه ما حييت وأذكره بين الأطلال في الغروب والشروق، في السهوة والصحوة، لن يحدنا عالمين مختلفين؛ فعشق الروح أغنى وأقوى وأدعو له بالرحمة والغفران ما حييت..

..تغير تدفق المياه في حياتي وصار لي أن أناشد الحياة على مجاريها، وأن لا أنسى حبي ما حييت؛ فلا قيمة للحياة دون عشق حتى ولو كنت خاسرًا وعشيقك بعيد، لا تسال روحك عن نوع العشق الذي تتمنى؛ فليس له تعريفات وتسميات، إنه كما هو بسحره ونشوته ونوره الساطع..

فالعشق سبب حقيقي للحياة وأسراره عظيمة..



"الحب شجرة العاشقين المثمرة.. فثمارها لا

تفنى ولا تنتهي"

عون الله علي،،